رجال وجبال ورصاص

فؤاد حجازى



رجال وجبال ورصاص

[رواية]

فؤاد حجازى

أدب الجماهير

كتاب أدبى يشرف عليه:

فؤاد حجازى

المراسلات:

عمارة الفردوس.
جوار مدرسة الشيخ حسنين. المنصورة
الرمز البريدى : ٣٥٥١١

تليفون:

٣٤٧١٦٨
٠٥٠

الغلاف والصفحات الداخلية عن رسوم للفنان مجدى سرحان.

صنعاء.. ماأسرع ماتغيرت.. وماأصعب صناعة الأسماء.. قتال عرم فى الجبال.. لتظلى جمهورية دوما.. مرحى.. مرحى.. الشوارع الرئيسية مسفلتة. لو تنبأ أحد بذلك منذ شهور قليلة لاعتبر كلامه مزاحا ثقيلا.. وشيخك الصينى.. لعله مرتاح الآن فى قبره.. يروون أنه مات حسرة وألما.. فهذا الصينى العظيم عبد طريقا صخريا حول جبال شاهقة من صنعاء إلى الحديدة.. مستخدما اللين والحيلة.. لايشق عصا الطاعة على الجبل حتى لايغضبه.. يتسلق بالطريق فى دوائر تلف حوله.. حتى يضحك عليه ويفرغ منه إلى آخر.. صاعدا حتى يتخطى السحاب.. وحيث تتجمد الأطراف من شدة البرودة.. ويظل يمتطى السماء حتى قمة الطريق.. ثم يستوى حينا.. ويهبط حينا.. أميال.. وأميال.. حتى يقذف بالمرء فى سعير السفوح الحار..

ويروى أن الصينى الدءوب بعد أن ألهى عمله المضنى فى عدد من السنين، توجه للإمام.. لينال مكافأته.. أنكر الإمام أنه كلفه بعمل شىء.. وتساءل عمن أمر بذلك.. أحضروه له.. قطع رقبته فى الحال.. فقد الصينى حجته فى المطالبة بحقه.. أيامه غم.. قضى.. أقاموا له ضريحا فى مدخل صنعاء.. فى بداية الطريق الذى صنعه.. وكثيرا ماسمعت عن هذا الضريح.. دخلت صنعاء ذات ليلة ولم أره.. وأوطن النفس على رؤيته.. أغلب الظن أنى سأهمل ذلك عند مغادرتى المدينة.. كعادتى دائما كلما نويت أمرا.. ومتى أترك المدينة.. لا أحد يعلم.. الكل يقولون أننا فى الطريق إلى الوطن.. لاشىء مؤكد.. ربما عملية أخرى.. فتح طريق، تطهير جبل.. من يستطيع أن يجزم بشىء.. أم ترانى لا أود العودة.. أنا مشتاق حقا..

بلدى.. وناسى.. النفس حزينة.. البال غير صاف.. شرود فى لاشيء.. أرفض مواجهة نفسى.. إصبعى عازف عن الزناد. أريد راحة.. من يدلنى على الطريق إليها.. السوق.. هدايا للأعزاء.. الرغبة موؤودة.. زحام.. شيء جديد عليك ياصنعاء.. رجالك يرتدون الملابس العصرية.. آه.. عاد شبابك المثقف.. المنفى فى أقطار الأرض.. جموعهم تنتظم فى الكلية الحربية.. مبنى عصرى.. هو بعينه المبنى المهجور وأمامه أرض فضاء، عسكرنا فيها يوم وصلنا إلى اليمن.. عربات خاصة وعربات الجيش اليمنى تقتل قفر الشوارع الذى لاقيناه.. اليمنيون يرحبون بتلاقى المصارى فى الشوارع.. لم يكن هذا مألوفا لشهور خلت.. وعم يتكلمون.. اليمنيون.. كرهنا القات.. ومقتنعون بعدم جدواه.. ولكن ياأخى الاقلاع عن تعاطيه صعب.. لايتم بين يوم وليلة.. الجمهورية.. الوعى.. وماذا.. ياإلهى.. ماذا أسمع.. أيقول يمنى لآخر ياأبا سيد.. تغير العالم.. ونحن فى الجبال لانعى حقيقة ماحدث.. كان اسم سيد محرما على اليمنيين، لقب الإمام فقط، الآن السيادة مباحة لمن يرغبها. ضع الإصبع على الزناد. اضغط. ولينطلق اللهيب. ولتهب الصواعق. معاناة الجبال. معاشرة الصخور. ثم المشاحنات.. تعب القلب.. المغراز والنعال واللصوص.. الملاعين.. تحطيم النفس.. ومدرسة للمظلات أيضا.. شرطة يمنية.. وشرطة عسكرية.. وماهذه "الفيلات"، السفارات الأجنبية تغير جلدها.. بعد أن كانت فى قصور حجرية مثل البدر.. ومستشفى.. مستشفى حقيقى.. وممرضات.. فى زمنة عسكرية.. ولكنهن نساء على أية حال.. من يدرى.. بعد قليل نرى هنا يمنيات.. وإنهما لتصلحان فعلا. ولماذا العبث بما

طوته الذاكرة.. النفس الحزينة تهفو للنهايات الحزينة.. رأيت عرباتنا قادمة من بعيد.. انقبضت. سهمت. أحسست أننا سنغادرهما دون عودة، سألت عيناها عن مقصدنا. قلت دون كلام. لاأعلم. تأثرت جدا. بثت همومها للأرض. سألت أن تأتى معنا. أفهمتها.. جنود وقائد وتقاليد. اقتربت العربات، اجمعوا حاجاتكم. رجعت للسلام. كلماتها محفورة داخلى كحفر الماء فى مجارى الجبال. "أنت توحشنا خالص.. بنشوق لك.. كيف أشوفك"، سلمت على صاحبتها. سارت العربات. وهى تختفى ودعت بيدى. زميلى يودع برأسه ولسانه ويديه. جمالها وضجة زميلى جذبتا انتباه الركب.. الفكر ساهم. الطريق لصعدا طويلة، كلما أوغلنا تاهت منى المنى.. وفتر الإحساس.. وعورة الطريق ترجنى بخشونة.. طاردة ماعلق بنفسى من آلام.. أو تواريها بين طيات الوجدان.. لست على يقين من شىء..

***

صعدا. عند أقدامك لعقنا الراحة.. بعد مغالبة النفس والجبل، نبيت فى خيام.. نغتسل من الآبار.. مياهك عذبة.. نستحم بعد عناء القتال شهورا متصلة.. نظفنا ملابسنا وأجسادنا.. وكأنه لايصح دخول صنعاء الجديدة إلا بمظهر لائق. ولم نكن ندرى شيئا عن جدتها بعد.. عرفناها قرية بسيطة.. دورها طينية.. تحيط بها سلسلة من الجبال.. طرقاتها

ترابية.. القصر الجمهورى مشيد من حجارة بيضاء.. مظهره من الخارج لايدل على أهميته.. ولصنعاء سور.. مبنى من طين رملى كالأسمنت لاتنال منه قذيفة الدبابة.. أول شخص رأيناه متحضرا.. هو الرئيس السلال نفسه.. يحرس القصر عدة أشخاص.. حفاة الأقدام.. بنادق "لى انفيلد".. لايتقيدون بنوبات حراسة.. حسب أمزجتهم.. ينصرفون.. ينتظرون.. عملنا حراسة منظمة.. وجعلنا شرطة على بوابة القصر.. ومطار صنعاء. مجرد أرض لله واسعة.. لابرج مراقبة.. ولا ممرات.. ولا طائرات..

أكرمنا الفلاحون.. باعونا البيض والدجاج والخراف.. وكنا من ذلك محرومين.. هدوء يريح أعصابنا المرهقة.. نضحك لأتفه قشة.. ونهرج لمجرد الرغبة في ذلك. لاعمل يومى أكثر من تنظيف السلاح.. لاحوادث تخدش الأمن.. لاقلق.. المنطقة كلها مؤمنة.. أين هذا من أيام غدر المرء بأخيه.. كان الإنسان يشك في إصبع قدمه.. أركب وزميل مع بعض اليمنيين فى عربة واحدة.. وفى تلك الأيام.. والثورة غضة.. كان بعضهم جمهورى نهارا.. ملكى ليلا.. أو عند أى سانحة.. كنت في صنعاء ولحق بى الليل ولم ألحق الطائرة.. معى رسائل للجنود.. يستنشقون منها رائحة مصر. كان محرما علينا المسير ليلا من صنعاء إلى صعدا. فكثيرا ماحدث أسر وقتل في هذا الطريق.. معى زميل يحمل دواءً.. لايستطيع أن يقدر مدى الحاجة إليه إلا جريح في الجبل ينزف.. صممنا على الرحيل. بعدها عنفنا القائد ووبخنا على هذه المجازفة.. بحثنا عن وسيلة للانتقال.. عثرنا على عربة فورد يقودها يمنيون.. ركبنا معهم.. أظلم الطريق وانتصف.. بنادقهم كحراب الغابة

تحيط بنا.. وتبا لطلقاتها.. لايستعملون إلا رصاص "دمدم" المحرم دوليا.. ينفجر على دفعتين.. مرة وهو يخترق الجسم.. والأخرى وهو يفرش داخله.. أذهلتنا المفاجأة.. قفزوا خارج العربة.. ابتعد اثنان للتشاور.. بندقيتى الآلية معلقة على كتفى.. قمم الجبال أقرب إلى منها.. نطقت الشهادتين فى سرى.. وجدت وقتا فقرأت الفاتحة.. قد ينفع تصرف سريع. كالبرق.. بومضة أمل.. مرت عيناى على صندوق الأدوية. أومأت لزميلى.. التقط مايدور فى رأسى.. ولست أدرى كيف.. فجأة وجدته قادرا على ابتلاع ريقه.. والكلام.. ياأخى.. معى اسبرين حق الصداع.. معى حبوب حق الوجع.. أشار إلى صدره وبطنه.. متخذا وجهه هيئة من يصيبه الصداع.. ومنحنيا كمن يعانى آلاما فى جنبه.. التفوا حوله.. جاء المتشاوران.. تناولوا منه أقراص الاسبرين.. فى أقل من لفتة كانت بندقيتى فى يدى.. هممت بالنزول.. إلى أين ياأخى.. أشرت إلى فتحة بنطلونى.. ولاأدرى كيف نطقت وأنا أقفز.. المياه ستميتنى.. المياه ستميتنى.. كريح غاضبة اندفعت إلى قمرة السائق الخائن.. فوهة بندقيتى فى جنبه.. بصوت مضطرب.. غير مؤمن تماما بالنجاة.. حشرجت.. اطلع بسرعة.. تردد.. من تهدج صوتى.. من عينى القلقتين.. اهتزاز يدى.. تحرك الإصبع الحركة الآذنة باستعمال التتك.. انطلقت العربة.. تاركة اليمنيين يصرخون خلفها.. لاحقتنا الطلقات.. انحناءات الطريق بعد أن كان علينا أصبحت لنا.. صدت الجبال رصاص دمدم الملعون.. اسبرين حق الصداع.. معى سكين حق اللصوص.. وليس حق النعال.. الأحذية نصنعها بساعات العمر وانحناء الظهر.. اللصوص يسرقون بالبسمات

الزائفة.. المنافقون يسرقون الثورة بالتغلغل في أجهزتها.. والمرتشون واللصوص ينهبونها.. صعدنا الجبل.. كيف التصرف مع هذا الخائن.. الجبل مليء بالمغارات والكهوف.. لايأمن المرء شر وجود ملكيين بها.. عتمة كثيفة.. إشعال مصباح.. يجذب الرصاص كفراش صاروخي أهوج.. انتحيت به جانبا من الجبل.. كان أخشى ماأخشاه أن تمتد يده إلى خنجره.. لو طالته لوجدت أصابعه اليقظة المدربة فرصة لرشقه بمهارة لاتخطيء في جبهتي.. لذلك أمرته بخلع ملابسه كلها.. زميلي يراقب الطريق.. سألت.. ماذا أفعل بك..؟! قال وهو لايملك من أمر نفسه شيئا.. أنا ميت على الحالين.. أنا بالنسبة لهم.. يقصد زملاءه اليمنيين.. خائن لأني أطعتك.. وسرت بالعربة، وبالنسبة لك.. خائن لأني أوقفت العربة لهم.

ذاب حقدي في رعشة، كنت على أية حال مدينا له بحياتي وحياة زميلي.. ماذا يكون موقفنا لو لم ينطلق بالعربة.. أخذت خنجره.. أعطيته ملابسه، تركته في وحشة الجبل..

ماذا يقول الرقيب أول.. أخبار حلوة ياجماعة. سنمشي من هذا المكان.. (حنروح).. ضحكنا كثيرا لهذا الكلام.. ومع ذلك انتشت جوانحنا بفرحة لاارادية.. ورحنا نهنيء أنفسنا لرؤية عربات الرحيل.. متى نغادر هذا المحور.. لاشك أن أي مكان آخر سيكون أفضل منه.. وكل مكان نذهب إليه.. نتمنى لو نرحل عنه.. دئما نفوسنا تنزع للرحيل.

***

مهما كنت وعرا أيها الطريق، ومهما انخفضت وارتفعت.. ومهما كنت قاسيا فى انحناءاتك.. لن يعوقنا ذلك عن التهريج.. والطبل والرقص.. ممر ضيق بين جبلين.. لابد أن تمر عليه الدبابات قبل أن يستقيم الطريق.. ست دبابات.. الممر محشو بالألغام.. وبالجهل.. أو الوحشية.. أو كليهما معا.. لست أدرى.. مزروع أيضا دانات هاون.. وعبوات ناسفة.. وهناك من يأخذ ريالات سعودية لزرع الألغام.. ثم يطمع فى ريالات يمينة للإرشاد عنها.. الدبابة الأولى بها مدق للألغام.. انكسر.. وتعطلت دبابة فى جانب.. وقف الركب.. رصاص دمدم ينهال على فتحات الدبابات من أعلى.. هذا من فعل الخبراء البلجيكيين.. لعنهم الله.. الضابط يرفض الانسحاب.. يريد جر دباباته.. الخروج من فتحة الأمان أسفل الدبابة.. القتال بالأيدى.. طلقات هاون معاونة. الدبابات للخلف. لم يعد الجبل يعوق مدافعها.. مظاهرة من النيران.. فليظهر "كانتين" التعيين.. وليبدأ الإيقاع.. ولتشاركنا الجبال البهجة.. كما شاركتنا الحرب والرصاص.. ترتفع أيدى قواتنا بالتحية على طول الطريق.. يسألوننا عن وجهتنا.. نقول للوطن.. مع أننا لسنا متأكدين من شيء.. والمساء يافع.. الخدمة فى عملها المعتاد.. نداء بجمع السرية الأولى.. كنا أول كتيبة مظلات تصل إلى اليمن.. أنتم الآن على الطريق.. ومطمئنون لحماية مدافع الميدان.. والدبابات.. أما نحن فكان علينا أن نعتمد على أنفسنا فقط.. ولم يكن الموقف.. قد اتضح بعد.. شرح رائد ضخم.. نشط.. الموقف.. كتيبة صاعقة محاصرة بالقرب من صرواح.. سنقوم بعملية التفاف.. نحصر العدو بيننا وبينهم.. ضابط يمنى سيكون مرشدنا.. الإيقاظ فى

الرابعة صباحا.. لم ينم أحد.. جهز كل جندى شدته.. تنظيف السلاح.. ضحك واستهانة.. بعضنا متوتر الأعصاب.. نمضى الوقت فى لعب الورق.. لاأثر للعب للورق.. تساؤلات.. كم سنمكث هناك.. هل سننجح.. متى نرجع.. أسئلة عديدة.. إجاباتها مجهولة لنا.. هل نأخذ بطاطين.. ملابس وغيارات.. تركنا كل شيء.

فى الرابعة تماما ارتدينا المظلات.. وصعدنا إلى الطائرات.. أنفار الهاون جهزوا المدافع والذخيرة فى عبوات خاصة تتحمل الصدمات الأرضية.. الطائرات تحلق فى الجو.. متى يشع الضوء الأصفر إيذانا بالاستعداد.. تقدم ضابط لانستطيع أن نحملق فى وجهه كثيرا.. من كثرة نياشينه.. وكثرة العلامات الحمراء على صدره وغطاء رأسه. وفرط صرامته.. قال فى أبوة حازمة.. نريد أن نختار منكم أول دفعة تخدم فى سلاح المظلات بعد أن تقرر الاستعانة بالمجندين.. لم أكن أعرف الكثير عن جندى المظلات.. تقدم بعض الزملاء خطوة إلى الأمام دليلا على موافقتهم.. وجدتنى ضمن هذه المجموعة. كشف طبى دقيق.. رغم قصرى.. وقلة جسمى نجحت..

وصلنا فوق الهدف فى السادسة صباحا.. الجو معتدل.. لم يفطر أحد.. قلنا نفطر فى مواقعنا.. بعد انتهاء العملية.. ولم نكن نعلم أننا سنظل دون طعام عدة أيام. المنطقة غير مستوية.. مليئة بأشواك شيطانية.. نطير فوق الهدف.. عيوننا ترقب النور الأخضر.. بعد ثوان تحين لحظة ثمينة.. لحظة قضينا من أجلها تدريبات شاقة.. لم نكن نستريح أكثر من ساعتين فى اليوم.. قرب الثالثة صباحا.. عدو سريع.. وسير

بالجنب.. لازم الشريط يكون من الخارج حتى لايلف على ذراعي.. اليدان للسند على الباب.. القدم اليمنى إذا كان الباب.. الأيمن.. شُر ط المظلة الأربعة كانت كشرطٍ أخطبوطية.. تحكم في سرعة المظلة.. يداك على وجهك حماية من أغصان الشجر.. في الماء افتح قميص النجاة.. السقطة عكس الريح.. لف حول نفسك ثم قف بسرعة.. ظهر المظلة للريح.. طابور جرجرة.. أربعة عمالقة معلقون في الشُرط الأربعة يمثلون الريح.. يجرونه كالأحصنة في اتجاهها.. إذا لم تتخلص من المظلة بسرعة.. ياويلك من الأسفلت.. لم يفلت أحد.. والبرج.. من بعيد نحلم به.. وعلى القرب.. آه.. رسالة من والدتي بخط أخي الأكبر تعاتبني فيها على التحاقي بالمظلات.. وتعريض نفسي للخطر.. تبخر حبي لمشاهدة الجديد.. وأين هي إثارة الخيال.. لم نكن نظن أننا سنعاني الإرهاق هكذا.. كيف تحملنا.. لاأعلم.. النور الأخضر.. أول مرة أغمضت عيني من شدة الهواء.. القائد يدفع أجسامنا للخارج.. صعود مفاجيء وهبوط مفاجيء.. تخف الأجساد على المقاعد ثم تنغرز.. ثانية.. التمرين على تقدير المسافات.. سرعة الطائرات والمسافة التي ستقطعها بناء على سرعتها.. وماذا بقي بيننا وبين منطقة القفز.. متى سنصلها، لو علمت أمي أني سأقفز من طائرة.. أنا الذى كنت أسقط عن الحمار.. أنا الذى لم أعرف مصرا برا أحفظها جوا.. يالجمال خطوط القطن.. العربات كعلب الكبريت.. الخضرة كوشاح رقيق يداعب النيل.. الجبال والأشواك والرصاص المجهول.. أول مرة قفزت.. كم كانت فرحتي شديدة.. وكانت أسعد لحظات حياتي عندما تحقق ماكنت أظن أنه قد لايحدث.. لقد

فتحت مظلتي.. وجدت نفسي معلقا في السماء والمظلة مفتوحة.. لم أجد أي صعاب في ادارتها.. كنت أملك هذه المساحة الشاسعة التي تقع بين السماء والأرض.. بدأ الأستك في القفز.. قلبي يدق وأراقب النور الأحمر.. لم يشتعل.. ليكتمل الأستك.. حان دوري.. المرحلة الأخيرة أخطر المراحل.. إذا لم أستقبل الأرض جيدا جرحت. في الجو هدوء مريب.. لم يحس العدو بنا ساعة الإسقاط.. أشجار سنط كثيرة.. فروع السنط تضايقني.. أشواك الأرض تغرز في اللحم.. تبينت فيما بعد وأنا أنزع الشوك.. أن بعضه لايقل طوله عن خمسة عشر سنتيمترا.. الساق اليمنى والظهر والكتف الأيسر مليئة بالشوك.. لاوقت للشعور بالألم.. سرعة وخوف.. ضرورة احتلال أكثر المواقع ارتفاعا.. بعض الشوك لم ينزع إلا في مستشفى صنعاء. العبوات نزلت سليمة..

إحدى عبوات الهاون من شدة ارتطامها بالأرض.. انفجرت قريبا من موقع لليمنيين الملكيين في الجبل. وأحدثت دويا عظيما.

القوات على الطريق تحيينا.. آه.. لن تعانوا مثلنا.. تجمعنا بسرعة.. نصبت مجموعة الهاون مدافعها أسفل الجبل.. قصفت المنطقة التي سنصعد إليها.. بدأنا ترويض الجبل.. كلما بلغنا منطقة.. طلبنا من الهاون باللاسلكي رفع معدل الضرب أمامنا.. ظللنا نصعد.. دخلنا منطقة.. انعدام الزمن.. سلسلة جبال سنامية من ثلاث قمم. انقسمنا ثلاث فصائل.. كل فصيلة تحتل قمة.. لم نلاق صعوبة في الصعود.. تمركز الهاون بين قمتين.. احتلينا القمة الوسطى.. وهي أعلاهم.. تطل الجبال على الوادي من جميع الجهات.. عدا جزء بسيط.. يستعمل

كطريق. لم نجد أي مقاومة معادية.. ظننا أن الأمور ستكون هكذا دوما.. متى يصل المدد.. لنبدأ الحصار مع الصاعقة..

طلقات منفردة من جانبنا.. فوجئنا بغربال من طلقات دمدم يغطي مواقعنا.. من سلسلة الجبال المواجهة لنا. وصلهم الرد برشاشات جرينوف المتوسطة.. الملكيون مستترون فى أغوار الجبل.. بكثافة أمطرناهم بقذائف الهاون.. لابد من احتلال الجبل الذى يسيطرون عليه.. ذخيرتنا لاتكفى مدة طويلة.. نناوش حتى تصل الامدادات.. عن طريق الطائرات.. كما سبق الاتفاق.. ننتظر.. وننتظر.. ولاشيء يحوم في الجو.. نقتصد في الذخيرة.. لاداعي للبنادق الآلية مؤقتا.. الجرينوف والهاون على دفعات.. مر نهار.. ولحق به ليل.. طوارىء مائة في المائة.. كأنما عرفوا علتنا. دمدم يلاحقنا بغزارة.. دانة هاون تشق كثافة الرصاص، لسوء طالعهم.. معنا رقيب أول.. أخصائى هاون.. حريف.. طبعه المرح ومزاجه الهاون.. لايعبأ بالميرى.. يكشف مافى نفسه لأى فرد.. تسعة وعشرون عاما.. رشيدى.. متوسط الطول.. نحيف.. دريسي الشعر.. خفيفه.. شفته العليا مرفوعة لأعلى.. عيناه برسيميتان.. ضيقتان.. إذا نظر إليك أحسست برهبة.. رغم طيبته.. حاد الذكاء كأنما ورثه عن الزيود في الجبال.. سديد الرأى.. قادر على الإقناع.. أثناء التدريبات يراهن على إصابة الهدف من أول مرة.. المفروض قذيفة ناحية اليمين، وأخرى ناحية الشمال ثم الثالثة فى الهدف.. مرة أسكت هاونا معاديا من أول قذيفة..

وداعا للطعام المحفوظ.. جاء دور البسكويت والشاى.. زمزميتى تشكو الجفاف.. بعضهم حضر بزمزميته فارغة.. لست أدرى.. من أي مصدر تأكدوا أن العملية خفيفة..

في برودة آخر الليل التى تنفذ إلى العظام.. أخذت موجات الملكيين فى الهجوم.. لاتقل الموجة عن خمسمائة رجل.. يصرخون، أصواتهم غريبة.. كالهنود الحمر.. قائد الهاون.. سريع الحركة.. تحكم فى ذخيرته لأكبر فترة ممكنة.. الهاون يضرب بغرض التطفيش.. العدو يخشى الانفجارات.. همنا عمل أكبر دوى ممكن.. لايخافون البنادق.. أحدث الدوى رعبا، انحسرت على أثره الموجة المهاجمة.. والليل يلم شمله.. جاءت موجة تالية.. لا نوم.. لا غطاء.. لا طعام.. لاماء.. المتوفر البرد الشديد والرصاص الغزير.. زأر الهاون.. امتنعنا عن استخدام الأسلحة الصغيرة.. بقى معى حوالى ثلاثمائة طلقة.. من ألف قابلة للزيادة.. تحول المد الهجومى إلى جزر خائب.. النهار يشق طريقه بين الحجارة.. ذخيرة الهاون أوشكت على النفاد.. لايمكن المغامرة بإطلاق قذيفتين متتابعتين.. عودة إلى البنادق.. فى أعقاب كل قذيفة هاون. المد الشرس يطوقنا بأظلافه النارية.. جهر النهار بنفسه.. وداعا قذائف الهاون وذخيرة الرشاشات.. دمدم لايعطينا مهلة لأخذ أنفاسنا.. دخلنا مرحلة الدفاع عن النفس.. من كثافة الرصاص.. من يرفع رأسه عن الأرض يصاب.. من يرفع يده.. يسترحم زمزميته جرعة ماء.. تنهال عليها ثلاثمائة أو أربعمائة طلقة دفعة واحدة.. والليل ستار.. أقمنا متاريس من الحجارة.. الارتفاع عن المتراس محال.. بنادقهم مداها لايقل عن ثلاثة كيلو مترات.. بنادقنا اقتحام.. مداها بسيط.. أملنا ورجاؤنا الصامت.. الآخذ بمجامع النفس والجسد والأهل والذكريات.. أن نرى طائرة تتمطى بين السحاب.. فترنا فى استعمال الرصاص.. والشمس تقوم بمحاولتها الأبدية الساذجة

لصهر الجبل.. وصلت طائراتنا.. طلقات الإشارة لم تجد نفعا.. لأننا نهارا.. وأعصابنا تحترق.. انتهت طلقات الإشارة الباقية.. استهلكت ليلا في ترشيد الهاون.. تقطعت أنفاسنا وتحجرت حبات عيوننا وعبوات الذخيرة تسقط خلف خطوطهم. لابد من المرور عليهم إذا أردناها.. كل ماااستطعناه.. تمييز شكل العبوات.. جركن مياه.. قذائف هاون. رصاص. أولتنا الطائرات ذيولها... متى تعود.. متى تشنف الأذن والنفس بأزيزها.. ألقت تموين اليوم كله فيما يبدو.. كيف نقاتل حتى اليوم التالى ميعاد أوبتها.. ظن العدو أن الطائرات أسقطت مظليين خلفهم.. خف إطلاق الرصاص علينا.. اتجه ناحية العبوات.. تنفسنا بعمق لفترة بسيطة.. تأكدوا أن المظلات ليست كثيرة.. حوالى ست أو سبع.. ذهبوا إليها.. لم يجدوا أفراداً.. عرفوا أننا لانملك زادا ولا رصاصا.. اشتد الضرب علينا.. العبوات لاتنفعهم.. لايستعملون رصاصنا.. طعامنا لايحبونه.. يأكلون الكدم.. الكدمة تشبه الخبز الشمسى.. مصنوعة من الشعير.. خشنة.. غير مطحونة جيدا.. قلبها كالخميرة ويعلق به القش أحيانا.. تصنع على الشمس.. غموسهم لبن الماعز.. يضعون عليه شطة.. ويسمونه "بسباسي".. زاد الفلاح والمسافر والمحارب.

شددوا النكير.. نترقب الجولة التالية.. الذخيرة انتهت تقريبا.. المحظوظ معه حوالى ستين طلقة.. لاطعام.. لاماء.. والشمس تتنكر وراء الجبل.. توالت الهجمات.. مات أفضل ضابط معنا.. ملازم أول.. في نوبتجيته يسمح للفرد بالنزهة حتى ميعاد خدمته. يوصل الناس بعربته.. يخفف عن السجناء.. أصدر لنا أمرا بعدم اطلاق الرصاص إلا عن قرب..

فعلنا ذلك.. شحت الذخيرة.. يحدد لنا.. المجموعة الثالثة تلقى قنابل يدوية.. انفجارها المدوى جعل الملكيين يسرعون القهقرى. أصيب ثلاثة من الزملاء.. قتل بعضنا.. استمر ذلك المقت طوال الليل.. نفدت الذخيرة.. أبقى كل منا طلقتين للدفاع عن النفس.. نجهل المنطقة.. لايمكننا تحديد موقعنا.. نجهل الطرق.. لاتوجد خرائط.. فاليمن لم يتم مسحها بعد.. الجنود على الطريق يهللون.. اليمن تم مسحها بالطائرات.. لم تعد مفقودة لأحد.. قريبون من رأس العرقوب على الطريق المؤدي للسعودية.. ولانعلم.. الطائرات.. خلعنا ستراتنا وأشعلناها.. سقطت الامدادات بيننا وبين العدو في الوادي.. لابد من المغامرة.. نحن منتهون على أية حال.. تطوع اثنان من فصيلتنا.. وكذا من بقية الفصائل.. بادر رجلا فصيلتنا.. ينحدران بسرعة.. ثم يختفيان وراء الصخور.. مات أحدهما.. عاد الثاني بالجركن.. أصيب الجركن* بعدة طلقات.. وأصيب هو بعدة جراح.. الجركن ينزف طوال الطريق.. وأجسادنا الهفتانة تنزف معه.. توجد بقايا مياه في قعر الجركن.. جاء زاحفا.. ملأنا زمزمية. لم نكمل الثانية.. لانرفع رؤوسنا عن المتراس. نلقى الزمزمية للمتاريس الأخرى. كل جندي شفطة. الذخيرة الصغيرة أسفل الوادي.. بيننا وبينها مسافات.. ومسافات.. وصناديقها ثقيلة جدا.. حاول جندي.. قتل.. أحضر فدائي صندوق ذخيرة هاون.. خفيف الحمل نسبيا.. به ست دانات.. بقية الفصائل لم يستطع متطوعوها تكملة الطريق.. يصاب المتطوع ويعود زاحفا.. مات جنديان.. في حضنيهما جركني* مياه.. الموت

يعشش بين الصخور . العودة مفقودة . . النجاة . . حلم باهت . . لاملامح له . . عطش . . جوع . . المصاب لايمكن حمله إلى فصيلة طبية . . فقط رباط الميدان الطبى . . الموقف يتدهور . . ندر اطلاقنا للرصاص . . اقتحموا النهار بهجومين . . دانات الهاون العزيزة قامت بواجبها . . شراستهم المندفعة استمرت طوال الظلام . . وصل اليوم الرابع . كيف وصل . . ؟ ! أمر قائد السرية بالنزول إلى الوادى من جانب الجبل غير المواجه لهم . . لاأكل ولانوم . . منظرنا آسى . . هجموا من أعلى الجبل . . أملنا أن تتصل بنا الصاعقة . . الصاعقة تخلصت من الحصار . . قبل إسقاطنا . . عادوا دون أن يعلموا بوجودنا . . قابلناهم فى الطريق . . أرسلوا من صنعاء طائرة "هليكوبتر" للبحث عنا . . قلل ارتفاع الجبل من فاعليتها . . لم ترنا اطلاقا . . لم أدرِ بنفسى . . تدحرجت على الجبل . . انكسر ساقى . . الطيارون يظنون أننا نسيطر على الجبال كلها . . الطيار يعطى تماما أن الامدادات وصلت . . أجهزتنا اللاسلكية لاتستطيع عمل اتصال مع صنعاء . . الضرب من أعلى . . تبعونا . . احتلوا مكاننا . كثرت ضحايانا . . الوادى مكشوف . . ذرة مزروعة . . فصيلة تستتر بالذرة . . يحفرون بمقدم الخوذات . . الموت لايستحى ويلاحقهم . . لا طلقة . . لا قنبلة يدوية . . حاصرونا فى الوادى . . كل مجموعة تستنجد بصخرة . . تستعد للتفاهم بالسلاح الأبيض . . وهم برصاص دمدم . . الحلقة تضيق . . وتضيق . . نزل شيخ القبيلة . . حدث مالم يكن فى الحسبان . . مسدس أحد الضباط أطلق عليه الرصاص . . له ستة أبناء . . جاءوا . . أحد الجرحى يطلب

ماء.. مصاب بسبع رصاصات في فخذه وعموده الفقرى.. أخذونا إلى بئر في بطن الجبل من الخلف. آه لو كنا نعرف مكانها.. وجدنا قريتهم.. دور مبنية من طين رملى.. البيت ممر طويل في جانبه حجرة أو حجرتان.. بعض الدور من طابقين.. الأول من حجارة بيضاء والثانى من الطين.. سقوف خشبية.. لا نافذة.. طاقة فقط.. إحدى الدور فتحاتها مغطاة.. بزجاج ملون، مربعات ودوائر.. يبدو أنها لشيخ القبيلة.. وقعوا في حيرة.. ماذا يفعلون بنا.. نزعوا ملابسنا، تركونا بالألبسة.. والخواتم.. أرادوا السلاح.. قال الجريح بوجهه الأصفر.. وهو ضابط.. السلاح دون ذخيرة لافائدة منه.. لم يوافقوا على كلامه.. تقدم أحد أبناء شيخ القبيلة.. يريد فردا لقتله فدية لأبيه.. أجلسونا القرفصاء.. الإبن يستعرضنا.. هيئتهم غريبة.. خلاف اليمنيين الذين رأيناهم.. لحاهم طويلة جدا.. شعر أسود.. ليل فاحم.. شعورهم مدلاة على "الجونلات" التى يرتدونها.. على الرأس طرطور.. ملفوف بشال ملون.. أخضر وأحمر.. سحن سمراء داكنة.. أسنان صفراء من الشمة.. مسحوق أصفر يشبه النشوق.. يسفونه.. كل منا يخشى أن يقع عليه الاختيار.. نتمنى الموت بسرعة.. لكن.. "يارب مايشير إلىّ".. اختار رقيبا أول.. رقى مساعداً حديثا.. أبيض البشرة.. فارع الطول.. رخم جدا.. زعلنا وغمرتنا راحة مؤثمة. دمعت عيناه.. أخرج صورة لولدين وبنت.. رسم من هذا.. رسم أولادى.. حق من الجهال (الأولاد).. حقى.. تمخضت السحن الغريبة عن أخ للرجل. بحق الجهال هذا نتركه.. تركوه فعلا.. تأثرنا

وفاض دمعنا.. الضحية.. المعفى عنها.. نشجت لا إراديا.. تركونا نقاسي الجبال. ونستنطقها عن الطريق إلى صنعاء.. النهار أدبر.. أى جبل هذا.. قف.. إحتل.. يالها من رحلة عودة.. ومن أدراك أنها عودة..

***

نتام تحت العربات.. ننام داخل العربات.. لايهم.. المهم أن نكون فى الطريق إلى الوطن.. ماأسرع صباح المشتاق.. العربات تسير بنا.. كأن مهمتنا وغايتنا فى ركوبها.. لم نرفع مبيتنا، من انعدام الزمن والتعب، حتى الرابعة عصرا. طلائع الكتيبة التى ستحل محلنا.. يقولون.. يشقون الجبال لاستقبالنا.. غرق الناس فى السؤال عن رفاق السلاح القدامى.. يستطلعون أخبار الأحياء والشهداء.. أتركوا كل شيء فى العربات. مسموح المبيت مع الزملاء.. العربة بيتى ومقصدى.. ماذا أسمع.. إسمى يتردد.. صديق من أيام خدمتي في المشاة.. أوحشتمونا يازملاء المشاة.. مالى أحس بما يشبه الزهو.. أهو حالى فقط.. أم حال كل رجال المظلات.. تبيت معى.. بسرعة أخبرنى عن قصة حب له.. كأنه كان يدخرها حتى يراني.. يحب فتاة يمنية.. أمها عدنية.. أبوها نقيب يمني.. حاكم المنطقة.. وكالريح أحضر من عندها أدوات مائدة.. بهارات.. بيض، موقد.. "بيض بالبلوبيف". إكرام الصديق فى الغربة نصف عودة للوطن..

تعبان ومرغم على سماعه.. وعلى ايقاعات حبه أحيا قصة حبى.. ومأروع سيرة الحب عندما تأتى والنفس قد انتزعت بالرصاص من أنياب الموت المحدقة.. لم نكن استرحنا من فتح نشور.. ونعتقد أنها آخر عملياتنا فى اليمن.. إذا شيخ جمهوري.. قصير بشكل ملحوظ.. لحيته متشعبة الذيول.. شعره قصير.. الحلاق جلط له سالفتاه وقفاه.. يرتدى (يدك).. جلباب دمور على العرى.. على اليدك (الجنبية).. حزام يلف وسطه.. فى منتصفه خنجر وحوله طلقات رصاص.. معلق على إحدى كتفيه بندقية "لى انفيلد".. جلبابه.. لايصل إلى ركبتيه.. يشبه عب الفلاحين، يتدلى شال احتياطى وراء خنجره.. على رأسه طاقية. تشبه قصارى الزرع. لونها بنى فاتح.. يلفها شال أخضر.. يتستر بفحمة الليل.. تاركا قريته الصغيرة بجوار نشور.. طالبا حماية القوات المصرية.. قريته تواجه جبل خنفرع الذى يسيطر عليه الملكيون.. ألزموا سكان القرية دورهم.. من يخرج يصطادونه فورا.. ألا نستطيع إلزام أعضاء مجلس الإدارة اللصوص دورهم.. أنا عضو مجلس ادارة جمعية لصناعةالأحذية عن العمال.. ولكن.. واحسرتاه.. فى الظهيرة أشعلنا أقراص الكحول البيضاء.. سخنا علب خضروات محفوظة.. المدفعية تدك خنفرع.. خنفرع مارد مرتفع جدا جدا.. غير مدبب.. قمته ساحة تسمح بهبوط طائرة.. أكل وكلام معاد.. الجو لطيف نهارا.. تلسعنا سياطه ليلا.. قال القائد.. مركز قوة العدو فى هذا الجبل.. لو أخذناه نستطيع الزعم أننا فتحنا نشور.. خنفرع صمام الأمان. الفصيلة الثالثة من السرية الأولى فى المقدمة. مات قائدها.. أنا القائد.. من تبادل نيران

المدافع.. وضح أن بالجبل قوات ضارية.. لازم العملية تكون صامتة.. أهم شيء المفاجأة. في المساء تحركنا.. بين موقعنا وخنفرع العملاق حوالى ثمانية كيلو مترات.. الظلام طبقات كثيفة.. آخر شهر عربى.. والقمر يضن بالضياء. مشينا مايقرب من ساعة ونصف فى صمت.. تزيده العتمة عمقا.. نرقد.. ننهض.. نوشك أن نلحق بالجبل.. انهالت النيران علينا.. انتشرنا.. رقدنا بعض الوقت..

توقف إطلاق النيران.. يقصفون من باب الحذر.. فيما يبدو.. خنفرع منظره غريب.. زادته الظلمة ضخامة ورهبة.. يتصل به جبل آخر. بعد مساحة مسطحة لاتتجاوز نصف كيلو مترا.. يعلو حائط صخرى عنيد.. غير مدرج.. لايمكن تسلقه.. أين المتشعلقون والمتسلقون والإنتهازيون.. يظهرون مهارتهم.. المرء لايعثر على نفسه.. نسير بقوة مبهمة.. خزائن الرشاش الخفيف الحديدية ملأى بالذخيرة.. أثناء الصعود تحدث خشخشة.. تعتبرها إرادة الحياة المتشبثة بأعماقنا.. ضجة خطيرة.. يزغده الذى خلفه.. كنا نظن.. وبعض الظن عبث.. أن الجبل لن يستغرق منا وقتا كبيرا.. بعد أكثر من ساعتين لم نصل أول تبة.. رقيب معنا تقيأ دما من البرد.. وإجهاد أيام سابقة.. أحمل جهاز لاسلكى للاتصال بين الفصائل.. أرتدى سروال طويل داخلى من الصوف.. وفانلة صوفية.. و(أفرول كاكى) وبدلة (اسموكس) تشبه بدلة الإسكيمو.. لها جيوب عديدة مبطنة بوبر صوفى.. لست أدرى إذا كان لماعز أو جمل.. ومن الخارج مشمع مموه.. ومع هذا تسلل البرد إلى عظامى.. الوقت يقترب من منتصف الليل.. بعد عدة ساعات.. طلبنا من القائد فترة راحة.. أشار

إلى بقعة بيضاء جيرية.. في قمة الجبل الأول.. تكسر حدة الظلام.. وصلناها قبيل الفجر بقليل.. تركنا الرقيب المتعب يستريح.. كنا صفا واحدا.. أوله على القمة وآخره أسفل الجبل.. أخذت مكان الرقيب في الفصيلة.. طلبت من القائد الإذن بتفتيش المنطقة قبل أن نستقر.. تركت جهاز اللاسلكى لأحد الجنود.. أخذت بندقيتى الآلية.. نهض معى رفيق.. تسليحه بندقية قناصة.. بها تلسكوب.. اعترضنا ساتر.. تقدمت لأرى ماوراءه.. حفت طلقة في جانب الخوذة.. ومرت بخد القائد.. ثم اخترقت كتفه.. قال القائد.. أنا أصبت ياأولاد.. لا شأن لكم.. إجرِ أنت وهو. ذهب زميلى القناص لإحضار الرقيب الطبى.. زعق فيه القائد.. في هذه الثوانى الثمينة.. تقدم زميل ببندقيته الآلية يحرس المكان.. لاأدرى إلا وأنا أتراجع قليلا ثم أقذف بقنبلة يدوية.. غالبا كانوا ثلاثة.. جرى اثنان.. أصيبا.. إطلاق النار غير طبيعة العملية.. أجهض صمتها.. انتبهت جميع كمائن العدو.. في هذه اللحظة وصل رقيب أول السرية.. طلب عشرة أشخاص.. أخذ جماعتنا واثنين من الجماعة الثانية.. النيران تنهال علينا.. تقدم حكمدار الجرينوف بماسورة المدفع يرش النار بغزارة. زميله يلاحقه بعلبة شريط الذخيرة.. أخرس نيران العدو.. ولم يشعر إلا وماسورة المدفع مشتعلة.. ويده محترقة.. وجد نفسه غير قادر على حمل المدفع.. نقله لزميله.. جلد يده ينتزع منه.. صرخ.. يدى.. يدى.. لحقه جندى بضمادة.. الراحة تركناها أسفل الجبل.. ولم نكن نعلم.. لابد من الاستمرار وإلا هلكنا.. بدأت عملية تطهير الموقع.. قنبلة يدوية تعقبها دفعة نيران.. ثم نرقد حتى صعدنا، إلى الجبل الثانى.. فوجئنا

بالحائط.. مدفعيتنا أسفل الجبل بدأت القصف مرحلة.. مرحلة.. كلما وصلنا إلى مكان.. طلبنا منهم أن يرتفعوا بمستوى النيران.. انقلبت العملية الصامتة إلى عملية انتحارية، كل مانعيه أنه لابد من قهر الجبل.. نوجه المدفعية.. نبحث عن مكان لصعود الحائط.. دون جدوى.. فوجىء الملكيون بنيراننا.. لو قذفونا بالحجارة من أعلى.. لنالونا.. أخذتهم المفاجأة.. وجهوا كل همهم لنقل المعدات والذخيرة.. الحائط مستعص.. انقسمنا.. كل مجموعة فى اتجاه.. بين فترات القصف يلف الوجود صمت رهيب.. خلعنا القوايش.. ربطناها.. تمكن أحدنا بمشقة من الصعود.. أخذ يشدنا.. واحداً تلو آخر.. الأوامر.. إصعد وارقد.. مساحة الجبل شاسعة.. همنا أن نحدث أكبر دوى ممكن.. يخافون الانفجارات الشديدة.. تجمعنا نحن الخمس.. أعد كل منا قنبلة يدوية.. قذفنا مرة واحدة.. سمعنا صراخهم.. ينزلون.. رأينا أشباحهم المهرولة.. تركنا جهاز اللاسلكى قبل تسلق الحائط.. أطلقنا قذيفة إشارة لزملائنا.. ردوا علينا بقنبلة يدوية، حددنا اتجاههم.. أخذت المجموعتان فى تطهير الجبل.. وصلنا قمته.. العرق ينضح على جباهنا وأجسادنا.. من شدة البرودة تتجمد حباته.. حارب البرد بهمة فى صف العدو.. تضخمت قدم أحد الزملاء.. يصيح.. رجلى ستنقطع.. الرقيب الذى تقيأ أحضرناه.. يحشرج.. اشاهدوا علىّ.. فر العدو ولم يفر البرد.. أقصى أمنياتنا أن تبزغ الشمس.. الساعة تكذب وتقول الخامسة والنصف.. لم يبق على ظهور الشمس سوى ساعة.. والحقيقة أنها عام كامل.. جميعنا فى ابتهال صامت ناحية الشروق.. رسائل الأسرة والأصدقاء

تملأ جيوبي.. وتدفيء وقت فراغي.. أخرجتها.. أشعلتها التماسا للحرارة.. نناول النار بعضنا بعضا.. يأخذها كل منا بحرص.. يدارى عليها بيده.. يضعها داخل سترته.. ولايحس شيئا.. في الصباح كانت بملابسنا آثار احتراق.. وزعنا أنفسنا.. كل اثنين في مكان.. نطلق النار.. كل فترة قصيرة.. حتى لايفكر العدو فى الصعود إلينا.. أكتم ألمى.. وأخرس نفسي.. حتى يصبرون.. توليت الخدمة وأرحت مجموعتى.. غفلت عيونهم من شدة التعب.. ظللت يقظا.. أرقب طلوع الشمس.. أتمنى فى أعماقى أن تشعل الجبل.. وليس لها شأن.. لم أحس طعما للشمس ولا حلاوة تدغدغ الحياة فى ذرات كيانى.. إلا فى بكور هذا اليوم.. انجابت الظلمة عن احمرار الشفق.. أطل نصف قرص الشمس من خلف الجبل.. كأنها تخشى عتابنا لها بعد طول احتجاب.. عندما أيقن قرص الشمس أنه لن يجد إلا متعبين ومسهدين.. وجرحى وقتلى.. جهر بنفسه.. دبت الحركة فى الجبل.. الخدمة مائة فى المائة.. وأنا فى الليل مر بي ضابط.. يتأكد من النوبتجية.. زملائى منكمشون بجوار ساتر وأيديهم على خدودهم.. لابد من احضار البطاطين والذخيرة من أسفل.. نزول الجبل يستغرق ساعتين والصعود ثلاثا.. لايمكن عمل ذلك أكثر من مرة فى اليوم.. عثرنا على قتلى العدو وذخيرته.. مكتوب على صناديق الذخيرة.. صنع فى الولايات المتحدة الأمريكية.. وجدنا ثلاثة عشر شخصا جرحى.. أسرناهم.. الرقيب الذى طلب منا قراءة الشهادتين عليه.. تحسنت حالته.. أخذ صاحب القدم المتورمة حقنتين نوفالجين.. بدأ يشعر بالراحة.. كان تضخمها من كثرة المشى.. رغم تعبه بدأ

آخر النهار يساعدني.. أحرج أن يراني أعمل وحدي.. نستعيد أنفسنا.. يحصدون الشعير أسفل جبل خنفرع.. أصبح خنفرع ساترا وغطاءً.. ميعاد نزولي من الجبل كل يومين لإحضار الطعام والماء.. كثير من الزملاء يحبون النزول في دوري.. شمس العاشرة صباحا جميلة.. لاتنسى أن قتالا دار هنا منذ ساعات.. فتاتان تحصدان الشعير بأيديهما.. ترتديان جلبابين أسودين.. تفصيلتهما تشبه الشوال.. يصل الشوال إلى تحت الركبة.. تحته سروال من نفس اللون.. أسفله مطرز بخيط أحمر.. ومفتوح من الجانب الخارجي فتحة بسيطة.. يقولون.. يشترونه من السعودية.. فتحة الصدر بسيطة.. احداهما ذات شعر فاحم جدا.. يلمع من أثر دهنه بالسمن.. عيناها واسعتان.. وجهها مستدير.. أبيض بدرى.. لأول مرة أرى مثل حسنها في اليمن.. زميلتها أقل منها طولا وحسنا.. خلف أرضهما عدة بيوت.. في المنتصف.. بين نشور والقرية التي طلبت حمايتها.. فلا هم يستطيعون أن يصبحوا ملكيين.. ولا جمهوريين.. في جانب من الأرض الزراعية كوخ من طين.. يحف بأرض الشعير الذهبية.. خضرة برسيم في مساحة صغيرة.. تخفف من جهامة خنفرع.. وتلين منظر صخره البني الداكن.. أعلاه طبقات جيرية بيضاء.. ومنظر الجبل على بعد رمادى غامق.. أهلهما فيما يبدو.. مشغولون في جمع أنقاض دورهم.. من أثر القصف.. قلنا لهم.. أصبحتوا (صباح الخير).. أصبحتوا.. قلنا.. نيجى نسبل معاكو.. (نحصد).. مانشتهى نتعبكوا يامصارى.. الحلوة لاترد.. زميلتها رقيقة.. لاتخلو من جمال.. عيناها سوداوان.. رموشها طويلة.. هى التى ترد.. تجلسان

القرفصاء.. زميل يجر كلامهما.. نبغى حتتين خشب.. لبغى نشرب شاهي (شاى).. ويكون عليه مرايس (سكر).. أحيانا يصنعون قشر البن دون مرايس.. لايتذوقه المصريون أبدا.. لوحتني التي لاترد.. وجدتني أحدثها.. عنيكي فتاله (فاتنة) - وهي كلمة يعتبرونها عيبا ولايصح ذكرها.. أنت شكل المصاري.. تعطفت.. المصاري تمام حالي (حلوين).. واحنا.. ماحنا زيهم.. متأهلة (متزوجة).. متأهلة.. فين جوزك.. تركته.. مايريد أعيش معاه.. ليه؟.. ماهو تمام.. هذا يضربني ويشتمني.. مابغى أعيش معاه.. ماكنت أبغيه وماكنت أريده.. زوجوني ومابعرف هو منين. سبتيه إزاى.. حبسني في خزانة أفراخ خمستاشر يوم.. ماكنت أخرج من البيت.. وماكان يدخل لي مؤن زيادة.. قلت له حرمت وتبت.. أخرجني وذهب يحارب مع الملكيين.. جريت في الطريق.. قابلت عربية مصرية في الطريق.. أوصلوني إلى أهلي..

في صدرها عقد ملون.. زميلي سأل عن ثمنه.. بريالين.. أشارت لتطريز جميل أعلى ثوبها.. يعملوه في السعودية.. إيش اسمك.. نعيمة.. وصاحبتك.. توفيقة.. سألت توفيقة.. مصر حالي.. قلت مصر جميلة.. وفيها ملابس أحسن من هذا.. قالت نعيمة أشتهي أروح مصر.. أبغى آجي بدون شيء.. أمشي من قدام الراجل هذا.. مالي اخوات بنات آخذك معايا نعيش مع أمي.. توفيقه تصنع الشاى.. على خشب وحطب ذرة عويجة.. سألتها عن ميعاد أوبتها.. نبني بيتا ولانأتي دوما.. حدثتها عن الطعام المصري.. الفاصوليا..

الفول المدمس.. الطبخ المصرى.. أشتهى أكل المصارى.. وعدتها أن تذوق طعامنا.. ذهبنا إلي القرية فى باطن الجبل لإحضار التعيين والماء من قرب صعدا.. فى اليوم التالى ألح الزملاء علىّ فى النزول.. رفضت.. عادوا وأخبرونى أن نعيمة تسأل عنى..؟ نخيت.. عللت الأمر لنفسى.. أنا ذاهب معهم لأغسل ملابسى فى بركة بجوار الجبل.. كانتا عند دورهم.. ينقلون فروع الأشجار.. وقفنا نساعدهم فى تسقيف منازلهم.. جاءت نعيمة إلي جوارى.. سألتها مابتسبليش ليه.. ماعدنا نروح الغيط.. وشى لحظها بما تكن.. ربما نذهب لإحضار برسيم.. أمطرت السماء بغزارة.. صنع أبوها شايا.. كانوا مسرورين لأننا نعمل معهم.. كانت فكرتهم عنا أننا كفرة. يرتدون جلاليب مجلدة من القذارة كالمشمع.. لايخلعون جلبابهم من ساعة شرائه صيفا أو شتاء.. حتى يبلى.. أسرعنا قبل أن يعوقنا المطر.. السيول تنهال من أعلى الجبل كالأنهار الغاضبة.. إحتمينا بصخرة ضخمة.. المياه تساقط أمامنا كالشلال.. المياه ساخنة.. رذاذها الدافىء يغمر وجوهنا. لانفكر فى أنفسنا.. فكرنا فى المتاريس أعلى الجبل.. نبنى ثانية؟.. وجدناهم أعلى الجبل يندبون حظهم.. السيول جرفت معها البطاطين.. المتاريس تهدمت.. طوال الليل دون غطاء.. ننام على أرض مبتلة.. كان للمطر فائدة واحدة.. أخذ معه القمل وذهب.. المياه بعد أن كانت شحيحة وبالقطارة.. ومن يجرؤ على غسل وجهه. نعصر فى البطاطين.. ننشرها.. نبنى متاريس دون سقف طبعا.. الدنيا كحل.. عند أى وشوشة هواء نطلق الرصاص على الفور..

وسيلة الدفء الوحيدة السجائر.. وسيلتى للدفء مايدور فى خلدى.. الحريم فى مصر شكلهم ايه.. الحريم حالى.. موش رفيعين زى هنا.. وشك أبيض مدور.. عودك جميل.. نادر وجودك.. تضحك وتخجل ولاتستطيع الكلام.. ترسل لى رسمك من مصر.. اعدها بذلك.. هل أفعل حقا..؟

* * *

سيدنا يوسف.. هل ولد هنا كما يذكر اليمنيون.. يسمون الجبل باسمك.. يليق بسيد جليل.. جبل اسطوانى الشكل.. بهيئة طابقين.. كالمئذنة.. ثمة طريق ضيق يوصل لأعلى.. كسلم المئذنة.. الغريب أنها محاطة بسياج صخرى طبيعى.. بالجبل مغارات.. تشبه الشقق. مطلية بالجير الأبيض.. فى إحدى هذه الشقق سجن زيفان. أتراه من عهد يوسف.. فى سفح الجبل بلدة سيفان. أعلى الجبل بركة مياه جميلة جدا.. كحمام السباحة.. برسم الجبل الاسطوانى.. نستحم فيها.. ونغسل ملابسنا.. أسبقنا لذلك سيدنا يوسف.. قبل ذهابه إلى مصر ، أى طريق سلكه.. ولم يكن الطريق معبدا كما هو الآن.. إذا كان ثمة طريق. وهل قابلتك القرود كما قابلتنا.. وماذا كان تصرفك معها.. صرفت تعيين وحدتى من الحديدة.. وأخذت معى ترفيه الجنود.. سجائر وبسكويت وعين جمل ومكسرات. بعد مناخة بقليل تعطلت عربتى. واصلت بقية عربات التعيين رحلتها.. وليرسلوا لنا عربة

تجرنا.. أغلقنا زجاج قمرة العربة.. الليل في أوله.. معالم مغارات الجبل تتحد بالظلمة.. سمعنا خرفشة.. عمنا الرعب.. لم نستعن بمصابيح السيارة.. ظننا متسللين ملكيين.. نطل من الخلف.. رأينا القرود تنقل صناديق التعيين.. وترصها.. لو أطلقنا النار سنجذب انتباه بقية القرود.. ماالعمل.. فجأة سلطت عربة أنوارها علينا.. جرت القرود من شدة الضوء.. قفز يمني مستلا خنجره.. جمهوري أم ملكي.. ياأخي ماتخف.. القرود لن تعود.. عزموا علينا بسجائر.. اطمأننا.. جمهوريون.. لم ننم حتى الصباح.. مر النهار.. خشينا أن نمضي ليلا قرديا آخر.. أسعفتنا النجدة.. الطريق يرتفع بنا فوق السحاب.. يحيط بنا ظلام موغل في العمق.. وجبال موغلة في الارتفاع.. وحشة الطريق ومانراه يشدنا إلى مقاعدنا في ذهول.. أنظر يمينا أجد جبالا عظيمة.. أنظر يسارا.. فإذا أرض منخفضة.. أو هاوية.. أشفق على نفسي من النظر لقاعها.. فجأة تعطل ادراكي.. قبضة جبارة لصقتني بظهر مقعدي.. ثم ثنتني للأمام.. المقطورة التي نجرها كادت تهوى في منخفض هائل.. شجرة على الطريق وقفت في الطريق إلى حلق الهاوية.. أصبنا اصابات طفيفة عدا واحد أصيب فكه اصابة شديدة.. لاعجب.. فالسائق يدوخ من الطريق الحلزوني.. إحدى حافتيه غير مرغوبة أبدا.. تتلف الأعصاب.. اليمنيون معتادون على الطريق.. الصينيون يقومون بصيانته.. سيدنا يوسف.. هل كان معك دليل.. عدنا من صرواح ولم يكن الدليل قد حضر.. نمشي.. مشي المتعب المرهق.. إصابات متفاوتة.. ذواتنا تلح في ترك المكان.. ممران جبليان.. اختلفنا.. بعضنا.. يريد المسير.. وبعضنا يفضل الموت على أن

يخطو خطوة واحدة.. مات ضابط كنا نحمله.. دائما يلح فى طلب الماء.. أطعناه عند اقتراب النهاية.. يبل لسانه.. قدماه مرتخيتان.. باردتان.. كف عن الحركة.. قبله أحد الضباط واعتراه نشيج حاد.. بكينا جميعا. صممنا على أخذ جثته معنا.. وضعناه فى بطانية.. هى الوحيدة الباقية.. استسلم أربعة للإرهاق.. رفضوا المسير معنا.. نغريهم.. سوف نساعدكم.. أغلبنا محنى الظهر من الجوع.. لايستطيع أحد أن يصلب وسطه.. فيما بعد.. سمعنا أسماءهم فى إذاعة السعودية.. وقعوا أسرى.. نجر أجسادنا.. وآلامنا.. طوال الليل.. تباب صاعدة.. وأخرى هابطة.. غير واثقين بطريقنا.. لم نسترح لحظة.. فى الصباح فوجئنا ببعض اليمنيين.. يصوبون فوهات بنادقهم نحو أجسادنا الضعيفة.. قف يامصرى.. قف يامصرى.. سألونا.. من أين جئنا وإلى أين نذهب.. من صرواح ونقصد صنعاء.. علمنا أنهم جمهوريون من قبيلة أرحب. رحبوا بنا.. دلونا على الطريق.. نسير مجموعات.. أربعات.. أو خمسات، قابلتنا مجموعات يمنية كثيرة.. كلما رأينا إحداها طبت قلوبنا.. لحسن الطالع كانوا جمهوريين، ينصحوننا بعدم الاقتراب من القرى الملكية.. ويصفونها لنا.. نقيب يمنى يلتقى بنا.. الدليل الذى طال انتظارنا له. يعرفه أحد ضباطنا. كلمه معاتبا.. ذكر سبب تأخره. قطع عليه الملكيون الطريق.. وصلنا أول قرية جمهورية فى المساء.. سأل الدليل عن الشيخ على.. شيخ القرية.. قوبلنا مقابلة حسنة.. طلبنا ماء من شيخ القبيلة.. ذبح لنا بعض الخراف.. صنع فتة من خبز القمح.. تجمع الأطفال حولنا.. هب لى شيجارة (سيجارة) يامصرى.. هب لى بقشة

يامصرى (عملة يمنية تساوى قرشا تقريبا).. للأسف لم نكن نملك شيئا.. عرايا إلا مما يستر عوراتنا.. الرجال بالأحضان.. أهلا مصرى.. شرفتم البلاد.. رجال الثورة أنتم.. حماة الثورة.. مرحبا بكم.. ثم يتكلمون بسرعة فلا تفهم شيئا.. ينطقون الط ظ.. إذا تحدثوا ببطء أمكن متابعتهم.. من علامات الترحيب الشديد.. تقبيل الركبتين.. تأثرنا.. واهتزت نفوسنا لمشاعرهم.. بعد طول ماعانيناه.. أخذنا الشيخ إلى حجرة طويلة بها مصاطب طينية فى جانبيها العريضين. انصرف يشرف على إعداد الطعام.. حذرنا قائدنا الملازم أن لانسهو لحظة، كان قد سرب الدليل بأن طلب منه إحضار سجائر.. فنحن لانعلم، حقا، إذا كانوا جمهوريين أم ملكيين.. ولسنا نطمئن إلى الدليل.. ففضلا عن تأخره.. فمن يدرى إلى أين سارت الأمور فى صنعاء.. وإلى أى مدى تأكدت ثورتها الحلم، والتى لم تكن لتخطر على بال أكثر الناس مضغا للقات.. هل أصبح الحلم رائعة نهار. نظمنا القائد بسرعة.. عين أربعة خدمة لحراستنا.. عريف.. وثلاثة جنود.. يغيرهم طاقم آخر بعد ثلاثة ساعات.. وهكذا.. فى حماية الخدمة استسلمنا لنوم طال افتقاده.. أيقظونا بعد فترة.. لاأعلم مداها.. ماأعلمه أنى أفتح عينى بصعوبة.. وجدت خرافا صغيرة مسلوقة.. ومقطعة.. شوربة.. فتة.. احضروا ملاعق لم نكن فى حاجة إليها.. الطعام ساخن جدا.. قسمنا القائد إلى مجموعات.. ظهرت روح الإخاء.. السليم يعطى للمصاب.. أكلنا كثيرا جدا.. وشربنا كثيرا جدا.. أحسسنا بدبيب نشاط وراحة.. فترة النوم مع قصرها عملت مفعولا.. بعضنا يأكل وهو يغالب النعاس.. صنعوا لنا شاهى.. شاى ثقيل ممتاز.

سألنا الشيخ إذا كان لنا مطلب آخر.. مطلبنا هو النوم.. طمأننا أن لانخشى شيئا مادمنا فى حمايته.. أغلق علينا الباب وانصرف.. طلب بعضا من القائد إلغاء الخدمة.. لأنهم بدون سلاح وذخيرة.. رفض القائد.. ولو ندافع وننقذ مجموعة منا بأى وسيلة عند أى خطر.. نمنا حتى اليوم التالى.. باستثناء من يحل عليه الدور فى الخدمة.. طلبنا المسير.. ودعنا الشيخ ورجاله بالأحضان.. رجا الشيخ أن يرانا ثانية.. سرنا فى طريق جبلى.. أشجار السنط.. فى بطن الجبل.. شعير وذرة عويجة مزروعة على مدرجات فى حافة الجبل.. قابلتنا كتيبة صاعقة.. رحبوا بنا.. جهزوا لنا عربات.. أخبرونا أن الكتيبة المحاصرة.. عادت.. لماذا لم يخبرونا.. كان الظن أنهم سيعودون قبل تحركنا إليهم.. وصلنا صنعاء.. حولونا جميعا للمستشفى.. أغلبنا غادرها بعد عشرة أيام.. الإصابات الشديدة رحلت إلى مصر.. زارنا قائد الجيش المصرى.. وصلتنا هدايا مصرية كثيرة.. لحظات سعيدة أن ألتقى من كان يعيش معى فى مصر.. الطائرات تحمل لنا طعامنا المصرى.. لازمنا شعور بجدية القتال.. كان بعضنا يظن أننا كشرطة دولية..

* * *

إلام نأخذ مواقع الكتائب.. حظى.. مكانى على الجبل الأسطوانى مواجه لموقع صديقى.. صاحب الطعام الجيد.. وعاشق ابنة العدنية.. يتصل بى عند إعداده لطعام ممتاز..

نحتل مواقع الكتيبة الذاهبة للميدان.. أي جهة يتجهون..
القادم من الميدان.. يعتقد دوما.. أنه لن يبلى أحد بلاءه..
أتراهم في الطريق لصعدا.. جاء قائد جديد لسريتنا.. عقب
تركنا للمستشفى في صنعاء.. سنقفز غدا في صعدا.. يحتلها
الملكيون.. سنحاصرها أولا.. تعليمات مشددة بعدم العنف.
على قدر سلوكنا يكون نفعنا للنظام الجمهوري.. شدد على
احترام آراء الناس ومعتقداتهم.. ألا يمكن القفز ومحاصرة
مجلس الإدارة.. التصدي.. المواجهة.. ولتهتك أقنعة
الاشتراكية الزائفة.. ترسل لي رسمك.. صعدا محاطة بسور..
وسلسلة من الجبال.. بالقرب منها مجز.. أكبر معقل للملكيين..
شيخ قبيلتها من الأسرة الملكية.. من أسرة البدر المخلوع..
الطائرات مسحت المكان.. فصيلة مظلات تفتح الطريق من
رايدا إلى صعدا.. ممر أرضي يساعد عند اللزوم.. فلا نكون
تحت رحمة الإمدادات الجوية.. ولتكن صرواح واحدة فقط..
الحب يترعرع حيث لي جذور.. وحيث يمكن أن تمتد لي
فروع.. خل عنك اكتئابك يانفسي.. اسقاط نهاري..
الظهيرة.. خارج سور البلدة.. منظرها من الجو كقرية مصرية.
ولكن محاطة بسور.. بجواره أرض صخرية مسطحة.. يسمونها
مطار صعدا.. تم الإسقاط بهدوء.. دون حوادث.. اسقطت
سريتان.. مدعمتان بفصائل هاون ومدفعية مضادة للدبابات..
معنا جهاز لاسلكي للإتصال بالطائرات.. استعدت المدفعية
خارج البلدة.. لم نطلق الرصاص.. بدأنا التقدم مع عمل ساتر
عن رفاقنا.. دخلنا من السور دون أية مقاومة.. بدت البلدة
مهجورة.. بها شارع عام.. تلحظ فيه آثار سوق منفض.. عينا
حراسة لبوابتي السور.. الأغنام ترعى.. المواشي تمرح.. بعد

أن خلفها أصحابها.. لم يسعف الهرب بعض الناس.. حاولنا استبقاءهم.. فكرتهم أن المصارى (المصريين).. كفرة.. نصارى.. يسلبون الأرض والنساء.. أغلى ماعندهم الشرف.. لايمتلكون شيئا غيره.. اليمنى تقتله ولايرى الغريب زوجته.. أول الأمر لم نرى نساءهم إلا صدفة.. محجبات.. لاتظهرن غير عيونهن وأيديهن.. أغلب الصعداويات فلاحات تساعدن أزواجهن.. حافيات الأقدام.. مع الوقت.. وتعود عشرتنا.. كشفن وجوههن.. لم تعدن تعتبرننا أغرابا.. عيونهن جميلة جدا.. سمر من الشمس.. زينتهن الوحيدة.. تعصرن الحشائش.. وتأخذن عصارتها الخضراء..تدهن بها وجوههن.. وتقلن.. هذا حق الرجال.. عندما أرينا اليمنيين مجلاتنا.. تعجبوا لصور نسائنا.. هادى سمينة.. ماهى تمام.. عاد الصعداويون الفارون لأخذ حاجاتهم.. نقول لهم.. لامطمع لنا فى بلدكم.. نحن ضيوف عندكم.. نحن أخوة.. كلنا عرب.. هدفنا القضاء على البدر وفلوله.. البدر يستغل قوتك.. أنظر لنفسك.. كيف كنت تعيش.. وبعد الجمهورية كيف ستعيش.. لايصدقوننا.. يقولون.. أنتم ظالمون .. أنتم يهود.. البدر من عند الله.. كلام شيوخ القبائل.. يجمعهم البدر فى أحد الجبال.. ويسمعهم تسجيلا مضخما لصوته وهو يصيح أنا الوحى.. أنا الوحى.. يذهل الشيوخ.. لم يكونوا يعرفون.. آلات تسجيل الصوت.. فهذه الأجهزة لم تكن معروفة إلا فى صنعاء.. وعلى نطاق ضيق جدا.. ولم تنتشر إلا بعد أن اشتريناها، كهدايا عند العودة، ورأوها معنا.. فبدأت اسرائيل وبعض وكلاء الدول الأوروبية، خاصة، بريطانيا تهرب هذه السلعة وغيرها كالراديو ترانزستور إلى اليمن عن طريق عدن..

للحصول على العملة المصرية.. وللنيل من سمعة الجنيه المصرى. بعد ذلك منع الجنيه المصرى.. وحذر البيع به.. البدر يرتدى بدلة فوسفورية.. يصعد مع شيوخ القبائل نهارا إلى الجبل.. عند حلول الليل.. يظهر من أحد الكهوف.. خلف ساتر.. يضىء الفسفور.. يظنون أن الوحى قد نزل.. وأن الله اصطفاه.. ينقل الشيوخ هذا الكلام إلى أفراد قبائلهم.. وكلامهم مصدق.. وكان البدر يأخذ رهينة من كل قبيلة.. ولتكن ابن الشيخ.. ويدر عليه راتبا.. أى شيخ يتمرد تطير رقبة الرهينة.. وعملت صعوبة الإنتقال عملها.. وسيلة المواصلات الوحيدة بين القبائل والقرى الحمار.. ويا له من موصل.. نقنعهم أن محمدا آخر الأنبياء.. أسمعناهم الراديو. يعرفونه لأول مرة.. نصلى معهم فى مسجد صعدا.. اليمنى يقرأ القرآن جيدا جدا وبسرعة جدا ولكنه لايستطيع قراءة كلمة فى كتاب آخر.. مسجد صعدا قديم جدا.. مبنى بالحجارة.. بلدة سيف بن ذى يزن.. عاصمة سبأ.. آبارها خارج السور.. بدأت أقلية داخل البلد تصغى إلينا.. يعاملوننا بحذر.. نتولى حراستهم من الملكيين. ذات يوم علمنا أنهم اكتشفوا جاسوسا.. استنادا إلى أقواله.. يتقاضى بوقشتين ونصف فى اليوم (قرشان ونصف) نظير توصيل معلومات للملكيين.. وشى به.. حكم عليه بالإعدام.. اجتمعوا حوله.. برك على ركبتيه ويديه.. أطاح سياف برقبته.. الرأس تنط على الأرض.. الجسد ينتفض.. الزور يصدر شخيرا.. يخور الجسم.. الدم يغرق الثرى.. علقوا الرأس من شعرها فى حبل.. تدلى من حلقه على السور.. سُمك السور حوالى متر.. وبه فتحات.. لاستعمال البنادق.. طلب القائد المصرى رفع الرأس المعلقة.. أخذنا نحدثهم عن ضرورة

عمل تحقيق مع المذنب.. وأن يكون هناك قانون يحكمون بمقتضاه. من يرتكب إثما يسجن في كهف وعليه حرس من رجال البدر.. يحضر له أهله طعامه.. قدماه مقيدتان في سلسلة حديدية.. لكل قبيلة كهف خاص بها.. يفرجون عن السجين.. إذا دفعت له فدية. أو ينسونه..

خنادق حول المطار.. ممرات وخنادق في بطن الجبل.. حراسة مائة في المائة علي السور.. ماطال انتظارنا له تحقق.. طلقات فردية من الجبال.. نرد بالهاون.. النهار حار جدا.. والليل بارد جدا.. طلقات الجبال تزداد عنفا وضراوة.. تجمع الملكيون من القرى المحيطة بالجبال.. رجل يدخل على القائد مقبوضا عليه.. يعترف أنه ممن يطلقون النار ليلا.. ولكنه يزعم أنه يطلق بعيدا عنا.. يحاول إرضاءهم. له أرض يزرعها نهارا على حدود السعودية.. ويحضر لإطلاق الرصاص ليلا.. استحال النوم في الخنادق ليلا ونهارا.. السيول تغرق الخنادق.. لدرجة أن النعاس يزورنا ونحن في قلب الماء.. والبطاطين. أسبوعان.. لاننام تقريبا.. نهارا نخلع ملابسنا لتجف.. ونظل عرايا داخل الماء.. نفضل النوم داخل المياه الدافئة.. على الليل البارد.. سيول جارفة من الجبل.. ننزح الماء من الخنادق بأيدينا وبقروانات الطعام.. نفضل الذخيرة على الطعام.. مع أن عدة أشخاص يشتركون في رغيف، نشترى خبزا يمنيا.. الرغيف بأربع بقشات.. استمرت السيول حوالى شهرين.. الدفاع صعب.. ارسلت لنا عربات مصفحة لعمل دوريات.. بدأنا نؤمن القرى حولنا.. خف ضغط السيول قليلا.. ولتخف أحزان النفس.. ولتهوى في قاع بئر سحيقة.. متى العودة للوطن..

لماذا تقطعون الطريق.. أنتم تعلمون أننا سنفتحه بعد دقائق.. نقوم بداوريات مستمرة طوال الليل.. لنؤمن الطرق.. مهمة خطرة.. إلا أنها بالنسبة لنا عبث غفر. لايشترك فيها ضابط.. جنود فقط.. داوريات صامتة.. راجلة.. أخرج مع الداورية أربع ليالٍ .. أتعشى مع صديقي قبلها.. خمسون يوما على هذا الحال.. لاتقاس كلها بداورية واحدة.. في جبال صعدا الشماء.. هجوم يومي على السور من الجبل.. خدمة السور فظيعة لا تطاق.. داوريات استطلاعية بالعربات المدرعة.. وأخرى راجلة في الجبال المحيطة.. لابد من هجمات لتأمين الجبال.. توجد خدمات استطلاعية متقدمة على الجبال.. تنذرنا باللاسلكي عند الخطر.. بدأ الملكيون يستخدمون الهاون.. آه.. دخلت الحرب مرحلة جديدة.. هذا من فعل الأمريكيين.. نريد أن ننهي القتال ونعود لبلادنا.. ونتركهم يعمرون بلادهم.. ويريد الأمريكيون القتال حتى آخر خبير من المرتزقة.. الطائرات تصل يوميا بالمؤن والذخيرة.. الهاون يقصف المطار.. تجمع الملكيون الفارون وأهل القرى المجاورة.. تمركزوا بالجبال المحيطة بصعدا.. صنعنا ممرات جديدة للطائرات.. الهاون يعوق الهبوط.. قتل أحد الطيارين، أخصائي الهاون قام بعمله.. الطريق إلى صنعاء مغلق.. نقوم بغارات على الجبال.. أربع عربات مدرعة.. توغلنا في بطن الجبل في أول ضوء.. فوجئنا بآلاف من اليمنيين الملكيين.. تبادلنا إطلاق الرصاص.. العربات مسرعة.. والبنادق الآلية تسابقها في سرعتها، نلقي القنابل اليدوية.. الأرض رخوة.. العربات تغرز.. أصابت الطلقات كاوتشوك بعض العربات.

أركب في العربة الأولى.. عدت العربتان الأماميتان..

الأخيرتان لم تستطيعا التقدم.. آلاف الطلقات تصك الدروع...
طلقة أصابت زميلا من فتحة بندقيته.. جنود العربتين العاطلتين أطلقوا النار حتى نفدت ذخيرتهم.. تعطلت عربتي.. نزلنا نزق العربة.. غير أحدنا فردة كاوتشوك دون أن يصاب بطلقة واحدة، قفز العدو على العربتين الخلفيتين.. أطلقنا عليهم النار.. ذبحوهم بالخناجر.. حتى المصابين لم يفلتوا.. طلبنا نجدة باللاسلكي.. جاءت عربتان.. أخذنا نوجه المدفعية على سور صعدا من مكاننا.. نسير خلف قصف المدفعية.. جعلنا نرفع معدل القصف إلى أعلا.. ونصعد خلفه.. طوعنا الجبل لإرادتنا.. وتم احتلاله.. تركنا خدمة عليه.. سحبنا العربتين العاطلتين.. حملنا الجثث إلى مستشفى ميدان صعدا.. وجد الطبيب جثة لم تنفصل رأسها.. أصيب صاحبها بإغماء فيما يبدو وتساقطت الدماء والرؤوس فوقه.. نبضه سليم.. عالجه الطبيب.. مصاب بذهول.. عرض عليه أن يعود إلى مصر.. رفض.. بقي مدة في المستشفى.. استرد وعيه.. انضم يحارب معنا.. ولطالما عجبت لنجاة هذا الزميل.. لماذا أخطأه الموت.. وكأنه فعل ذلك عن عمد.. دوما يحدثني أنه مدين باعتذار لإدارة مصنعه في مصر. ولو مات دون أن يفعل ذلك فسيتأثر جدا.. ولست أدري كيف يتأثر إنسان بعد موته.. يسكن في الجيزة.. ويعمل بمصنع لدرفلة النحاس بالعباسية.. في يده يتحول لرقائق جلاشية.. حسب الطلب.. ألواح النحاس تخرج من الماكينات الضخمة بأي سمك يطلبه منها.. يوما وكان في خصام مع زوجته.. لم يقبل أطفاله الثلاثة.. الدنيا ضيقة في وجهه.. يعمل في ورشة دهان سيارات بعد الظهر.. لاستكمال مصروف المعيشة.. يعمل البدع حتى يفلت

من دور الليل.. يعملون شهرا بالنهار وآخر بالليل.. العمل بالليل يليه تعب ونوم بالنهار .. ولايمكنه أن يعمل هنا أو هناك.. المصروفات تأخذ بخناقه.. عقله الملخبط أخذ بخناق الماكينات.. لم يضبطها حسب المقاسات المطلوبة.. زرجنت التروس مع بعضها بعضا.. عصت أوامره.. ماكينة بآلاف من عملة صعبة.. تعطلت في ثوان.. لو قال الحقيقة لأصبح في الشارع.. ومن لأسرته.. اخترع أعذارا للمهندس المحقق.. يدخل فيها قفلة كهرباء وكلام في المهنة لأفهمه.. بلعها المهندس بمزاجه.. لا يعلم.. يظن الأكاذيب انطلت عليه..

لكن نفسه.. وهاتف داخلي يعذبه..

آلاف الجنيهات التي تسبب في ضياعها تثقله.. يريد أن يعترف له.. لايجرؤ.. في الميدان.. يتعذب أكثر.. يقرر.. لابد من الاعتراف وليكن مايكون.. واثق بنبل المهندس المحقق.. الموت نفسه لم يجامله..

أيامنا.. غارات نشنها.. جبال نطهرها.. نترك خدمة.. ونسحبها إذا كان الجبل مبهّوَقا عليها.. إمدادات الرجال تصل تباعا.. اكتملت كتيبتنا المظلية.

المرض صديق للعدو.. انتشرت الحمي.. اصفرار في الوجه.. ربما من سوء التغذية.. ارتفاع في الحرارة.. لون مخطوف.. هزال.. سور مرتفع.. ونحن عليه ليل نهار.. خدمات السور أرهقت جدا.. أمر الطبيب أن ألازم المستشفى ثلاثة أيام.. سمح لنا بالتدخين.. منعا لانتشار العدوى.. اهتموا بالتغذية.. وصلنا أرز مصري.. مدعم باللحم.. من مدة لم نذقه.

نست الكتيبة.. وتحصن الطعام.. ولابد من قهر سنارة..
حصن على قمة جبل.. مركز قيادة للملكيين.. يشرف على
الطرق المؤدية إلى قرية مجز.. والقرى الأخرى التى تمدهم
بالذخيرة والرجال.. عن طريق السعودية.. التى لايفصلها عن
هنا إلا سلسلة من الجبال.. تحركت سريتنا.. سرنا من المطار
مسافة كيلو متر.. نروض الجبل أكثر من ساعتين. هبطنا واديا
منخفضا يفصل بين جبلين.. صعدنا فى الجبل حوالى كيلو
متر.. نهبط منخفضا بسيطا.. نتسلق تبة.. عليها الحصن.. لابد
من احتلال كل هذه الطرق.. واقتحام الحصن بعدد لايتجاوز
ستين شخصا.. أخذت المدفعية فى القصف على الجبل الأول
بعد الظهر.. فى جنينية المساء امتطينا الجبل الأول.. أثناء
صعودنا.. نراهم ينزلون مع قتلاهم من الجانب الآخر.. طهرنا
الموقع.. والليل فى مرحلة الصبا.. صعدنا للموقع التالى..
الذى اشتد عنه القصف.. نستعمل الجرينوف.. يردون
بالهاون.. لابد من الاقتحام.. مجموعة تتقدم فى صمت..
وأخرى تسترها بالنيران.. نتبادل الأمكنة.. الظلام شديد..
فى عنفوان الليل.. والقمر يفكر فى البزوغ.. وصلنا عقدمة
الجبل.. فوجئنا بهم أمامنا.. بدون تفكير.. اشتعل مدفع
الجرينوف بالغضب.. وجندى خلفه بحقيبة الذخيرة.. أنهى
حامل المدفع شريطين من الرصاص.. لم يحس إلا بيده
مشتعلة.. وملتصقة بالمدفع.. من عنف الضرب.. فر الملكيون..
لف الجندى يده فى بطانية.. يرفض العودة.. أجبرناه على
ذلك.. مع الخدمات الطبية..

اقتحمنا الموقع.. نلقي قنابل يدوية.. نرش الرصاص.. المرحلة الصعبة.. الحصن يقصف بالهاون والبنادق.. مابقى من الليل.. ننشىء متاريس فى صمت.. ونجلب صخرا لذلك.. بدأنا نتعامل بالجرينوف.. ذلك المدفع الروسى الذى لم يخذلنا أبدا.. حتى طلع علينا النهار.. لو قصف هاون الكتيبة من تحت فلن يصيب العدو.. وقد يصيبنا.. طلبنا صعود مدفعية.. جاءنا مدفع هاون.. أخذ بعض الجنود يجلبون ذخيرة للهاون والبنادق.. وطلقات للجرينوف.. من أسفل الجبل. نهارنا تحويل ذخيرة. في الجبل الأول تركنا فصيلة.. صعدنا بفصيلتين.. سنترك واحدة.. ونقتحم بالأخرى.. وهى الفصيلة الثالثة.. حسب طلب الرقيب أول.. حوالي ثمانية عشر من الجنود الأشداء.. وافقنا على اقتحام القلعة.. بدأ الهاون عمله.. تحركنا ليلا تحت ستار الجرينوف.. صمتنا حتى وصلنا بطن الجبل. فوجئنا بنيران مضادة.. أخذنا وضع دفاع.. نلقى قنابل يدوية.. ثم نطهر بالرصاص.. نصعد ثانية.. هم ثلاثة بكسر شوكة الحصن.. معنا قنابل دخان.. ألقيناها خلف سور الحصن.. اقتحمنا باب البرج.. الدخان والرصاص جعلهم يهربون من باب آخر.. اتصلنا ببقية السرية.. جاءوا واحتلوا القلعة.. عثرنا على قتلاهم.. غنمنا مدفعى هاون وصناديق كثيرة من الذخيرة الأمريكية.. لماذا أنتم كرماء أيها الأمريكيون فى هدايا الرصاص.. أصدقاؤكم الملكيون حفاة الأقدام.. لماذا لاتهدونهم بعض الأحذية.. أو على الأقل تعلمونهم لبسها. مع اختفاء الظلمة.. أمنا الموقع تماما.. أصيب بعضنا اصابات خفيفة.. واكتشفنا موت بعض

الزملاء أثناء بناء المتاريس.. نترك فصيلة للحراسة.. حتى يأتي يمنيون جمهوريون يتسلمون هذه المواقع.. وننسحب لعمليات أخرى.

***

سفح جبلك يايوسف مليء بالتين الشوكى.. أكان على أيامك بشوكه.. أم نبت بعد ذلك لمواجهة غدر الإنسان.. يسميه اليمنيون بالاس.. والتين المصرى يسمونه (عربى).. صفيحة ماء ملأي بالتين بخمس بقشات.. يتولي البائع تقشيره.. ويتولي الليل تثليجه.. ونتولى إلتهامه.. عند العودة من الداورية.. بعد منتصف الليل.. قرية زيفان تحيط بالاسطوانة أسفل الجبل.. أهلها طيبون جدا جدا.. نختلط بهم دون تحفظ.. نزور دورهم.. لأول مرة أرى هنا ماكينة طحين.. موتور صغير.. وقادوس واحد.. لاتوجد ماكينات.. أو نوارج.. يدرسون الشعير بفرشه على الأرض.. تمر فوقه البقر والحمير الحصاوى.. في الدور دهاليز.. ممرات طويلة.. يستريح فيها اليمنيون.. يخزنون (يمضغون القات).. يدخنون مداعة (شيشة).. الدجاج والبيض حق الإمام.. لايتناوله اليمنيون.. سوق صعدا.. يحفل بكل شيء.. مشمش وأعناب.. فلفل.. (الجاز) والملح.. سعرهما مرتفع جدا.. ملء نواسة بثلاث بقشات.. توابل.. بهارات.. ثوم.. زبيب ببذره.. يصنعونه بأيديهم.. الناس يكثرون.. ويتعاملون في السوق..

للتصرف.. ليس معقولا أن يتاجر أحد في هذا القفر.. في اليوم التالى زاد سخطنا.. لم يظهر العدو مطلقا.. حضر يمنيون جمهوريون واحتلوا مكاننا.. عدنا إلى صعدا ثانية.. علمنا أن كتيبة مدفعية تفتح الطريق بين صعدا وصنعاء.. وهو من أهم الطرق وأخطرها.. ضاع فيه جنود كثيرون، يعج بالمضايق.. يعلقون الجثث على الشجر ويشعلون فيها النار.. فتح هذا الطريق ينهى عزلتنا.. لن نتقدم لمجز.. إلا بعد أن ندعم بمدفعية ثقيلة.. عيار خمسة وعشرين رطلا على الأقل.. ومدفعية صاروخية.. حتى نخرس الملكيين.. لحين ذلك.. كلفنا بمهمة أخرى.. احتلال جبل مواجه.. لصعدا من جهة أخرى.. ثم نتركه لليمنيين.. الأمريكيون.. يتمكنون من خداع بعضهم.. ورشوته.. يبيعون المواقع.. نضطر لتطهير الجبال مرة أخرى.. لانستطيع أن نترك في كل جبل جماعة من الجيش المصرى.. لن تكفى عشرة جيوش.. ذات يوم طرق أسماعنا قصف قوى للمدفعية.. في ممر بجوار الجبل الأسود.. فرحنا جدا.. هللنا.. وصلت كتيبة.. مدعمة بدبابات وعربات مصفحة.. استمر القصف ثلاثة أيام.. أنبأت داورياتنا الاستطلاعية أنهم يؤمنون الممر.. أخيرا وصلت طلائع الكتيبة.. رحبنا بهم جدا.. وياله من يوم سعيد.. احتلت سرية الممر.. وصلتنا سريتان.. وجاءت المدفعية عيار خمسة وعشرين رطلا.. ومدفعية صاروخية.. يومان.. جاءت أوامر فتح مجز.. لابد من احتلال الجبال الملاصقة لمجز مباشرة.. أخذت المدفعية تدك الجبال.. في الرابعة صباحا استعدت كتيبة المظلات.. ركبنا عربات مدرعة وعربات (زل).. انتشرنا في الممرات الجبلية.. الملكيون يحتمون بالأغوار.. لايؤثر

سفرجل فى حجم البرتقال.. لكن أخضر.. نسميه سد الحنك.. يشبه طعمه طعم البلح الأخضر.. نأكله أثناء الخدمة.. ليصد أنفسنا عن الطعام.. نشترى الخراف من الأفراد.. الخروف الصغير بريالين.. فى العيد ارتفع ثمنه إلى أحد عشر ريالا.. البيضة ببقشة ونصف.. سرعان ماغلى ثمنها إلى ست بقشات.. المشمش لايوزن.. أربعون (تورة) بثلاث بقشات.. استقرت صعدا.. وأقيم البيع والشراء.. أمنا الجبال المحيطة بنا.. حضر يمنيون جمهوريون.. احتلوا أماكننا.. ذهبت سرية واحتلت جبلا للقرود فى سلسلة الجبال المحيطة بصعدا.. تم تأمين المنطقة نهائيا.. يلزم فتح مجز.. قرية تعدادها خمس عشرة ألف نسمة.. تعتبر من أكبر القرى.. شيخ قبيلتها من أقرباء البدر.. يفصلها عن نجران فى السعودية سلسلة من الجبال.. البدر يقيم فى نجران.. فى حماية الأمريكيين.. امدادات مجز تصلهم من السعودية.. ثم تمون القرى الملكية المحيطة بها.. مجز يحيط بها جبال مرتفعة جدا.. لكى تصل إليها.. لابد من احتلال كل جبل تمر به.. تزيد عن عشرين جبلا فى سلسلة عظيمة شاهقة. كل شيء حق مجلس الإدارة.. أسرة حمامة اليهودية مكروهة فى صعدا. حمامة تقيم بيتا للدعارة.. محمد البرجى يحذرنا منها.. البرجى يمنى جمهورى لازمنا بعض الوقت فى ترحالنا. يحب الضحك بخلاف اليمنيين.. عجوز ويقف معنا فى الخدمة.. البرجى من قرية عند جبل القرود.. عندما فتحناها.. كان مواليا لقبائل البدر.. حدثناه عن المساواة فى ظل الجمهورية. عارضنا أول الأمر. عندما اقتنع ظهرت طيبته. وأصالته. نضحك معه دائما.. تعوزنا حمامة يابرجى.. ماهى تمام ياشيخ.. لو خنستها (ضاجعتها).. تعيى

وتموت ياشيخ.. الأسرة اليهودية منطوية على نفسها.. البريد لايصل.. نفضل عليه الذخيرة.. انتظم مرة أخرى.. يذهب جندى من كل سرية إلى صنعاء كل أسبوع.. ومعه زميل آخر لإحضار لوازمنا.. فى الطائرة..

قال الضابط.. السرية الأولى.. فى عملية.. السرية الثانية وصلت بالأمس.. منهكة جدا.. جمع جنود صف الضابط ليلا.. أبلغنا بميعاد العملية.. نمنا فى العراء.. طلب الجنود التأجيل.. لابد من تأمين جانب صعدا.. تحركنا فى الفجر بمساعدة الهاون. الملكيون يبلغون بعضهم أنباءنا.. يتركون الجبال نهارا.. ويعودون ليلا.. نحتل أكبر مساحة ممكنة.. بينى وبين أول سرية حوالى خمسة عشر كيلو مترا.. أحتل أنا وثلاثة جبلا مساحته عدة كيلو مترات.. مر يومان دون طعام.. تناولت الكدم اليمنى.. خبز يمنى مصنوع من شعير مدشوش بقشره.. البدر يدر مرتبات يومية للقبائل المناصرة له.. ليعلنوا علينا الحرب.. الأمريكيون والبريطاليون والمرتزقة يعطون الريالات.. ونحن لانملك إلا كلاما عن الجمهورية والثورة وكلاما عن تحسين المعيشة.. أمام أناس بطونهم ظهورهم. لإحضار مياه.. نسير مايقرب من خمسة كيلو مترات. ليلنا أجدب من الكلام.. لا غطاء.. عيوننا مفتوحة طوال الليل.. من الخوف.. أقرب جهاز لاسلكى على بعد أربعة كيلو مترات.. يتلقى لنا الأوامر.. طلب منا عدم التحرك نهائيا.. أبلغنا أن الطعام سيصل عصرا..لانرى أحدا.. نحتمى بالمغارات.. يصطادوننا عن طريق القناصة.. رأينا شخصين. ذهب اثنان وأسراهما.. فتشناهما.. ادعيا أنهما تاجران.. خرج الحمار فيه كدم.. معهم مياه.. أخذنا كفايتنا فقط.. أرسلناهما للقيادة

عليهم قصف المدفعية.. التزموا الصمت.. حتى اقتربنا من الجبال، صبوا علينا نيرانا شديدة.. من البنادق والهاونات والرشاشات الأمريكية المتوسطة.. الجرينوف يرد.. يضربون من أعلى.. نتقدم.. أخذنا نرتقي الجبل.. فوجئنا بالعدو فوق الاسجار المحيطة بالوديان.. اشتبكنا معهم بعنف.. من عاداتهم الغريبة.. ربط المقاتل الملكي بحبل إلى الشجرة.. فإذا مات لايسقط.. ونظل نجهل هل طهرنا الأشجار أم لا.. استمر قصف المدفعية.. وظلت فصيلتنا طوال النهار تطهر الأشجار.. في المساء ارتددنا للخلف قليلا.. أنشأنا مواقع دفاعية.. بدأت جماعات.. تتقدم وتقوم بغارات مضادة.. كل جماعة من عربتين مدرعتين ودبابة.. هدفنا السيطرة على أحد الجبال.. حتى يمكن مواجهة الجبال الأخرى.. والتأثير على العدو.. صعدت مع مجموعة لنحتل الجبل.. العربة التى أركبها غرزت في أرض رطبة رخوة.. تقهقرت العربة الأخرى والدبابة.. هجم علينا آلاف من اليمنيين. اشتبكنا معهم برشاش الجرينوف.. يكاد يشتعل.. نرسل اشارات استغاثة باللاسلكي، تركنا العربة وأخذنا مواقع خلف الصخور.. زميل بمبادرة خارقة.. فلاح مفرطح اليدين والقدمين.. ربعة.. في الحال كان في خفة القرد.. وضع بندقيته بين قدميه.. وثبت الماسورة في زوره.. ومن فوق منحدر.. دحرج نفسه أسرع من رصاصهم.. لطلب نجدة.. اليمنيون يهجمون بصراخ مزعج.. ياصالح.. ياحامد.. يرتقون التباب المحيطة لنا.. بعضهم يحمل على كتفيه طاولات خشبية.. ينقلون عليها موتاهم حتى لانحصي عددهم.. فيؤثر ذلك في روحنا المعنوية.. جاءت دبابة تجر عربتنا.. مغامرة كبيرة أن نشبك العربة بها.. ونحن نربطها سقط زميل.. حملناه

معنا ونحن نعود للموقع الدفاعى.. نزعت خوذته.. فانتزعت معها طاسة دماغه.. مصابة بأربع طلقات متقابلة.. كان طالبا فى جامعة الاسكندرية.. لم أكن أعرف ماأقوله لليمنيين.. أرشدنى للكتب والمجلات.. أرى المجلات مثلكم أيها اليمنيون لأول مرة.. كنت أراها ولا أراها.. بعد القراءة عرفت مجلس الإدارة على حقيقته.. إليك عنى أيها الحزن.. إلى الهاوية أيها التردد.. قامت فرقة الإنقاذ بدفنه فى الموقع الدفاعى.. تقدمنا ثانية.. بأربع عربات ودبابتين.. انتشرنا فى بطن الجبل.. أخذنا نصعد.. مقاومة شديدة عنيدة.. لم نرتد ابدا.. حتى صعدنا.. جبلنا منخفض عن الجبال الأخرى.. طلع النهار والاشتباك مازال مستمرا.. المدفعية لاتكف طوال النهار.. يردون بالهاون.. نستعمل طعامنا المحفوظ.. الجو حار.. كل الإمدادات التى تصلنا والتى نرغبها.. ذخيرة فقط.. الليل قضيناه فى برد شديد.. ودون بطاطين.. النزول من الجبل لاحضار ذخيرة.. عذاب لايطاق.. كأنه هجوم.. ننزل.. ونرقد.. مع ذلك نتبارى... عيب كبير أن يرفض شخص النزول.. بعضنا يطلبون اعفاءهم. نريحهم.. نحول أكثر مايمكن من الامدادات. قبل بدء هجوم آخر.. وقبل احتمال قطع الطريق علينا.. فى العاشرة مساء تقريبا.. أوامر لكل الكتيبة باحتلال سلسلة الجبال المحيطة بمجز.. سريتان للصعود.. وسرية لتأمين ظهورهم.. وللإمداد بالأفراد أو الذخيرة.. وللقيام بالاشتباك مع الجبال الأخرى.. حتى لايشعر العدو بمن يصعد.. العملية صامتة من جانبنا.. يستغرق صعود الجبل ثلاث ساعات.. كلما بلغنا مرحلة رفعنا معدل ضرب المدفعية.. أخذت مجموعتى فى العمل.. عشرون شخصا..

يتحتم علينا النزول فى واد.. ممر بين جبلين.. نسير فى صف.. ننتشر بالعرض عند الارتفاع.. إكتشفنا داورياتهم المتقدمة.. اطلقوا النار.. الجبل كله فتح النار.. تبادلنا معهم النيران.. انتهى الصمت.. السرعة.. مجموعة تتقدم.. وأخرى تسترها.. حتى امتطينا الجبل.. من غزارة نيراننا.. كلما صعدت مجموعة منا.. نزلت مجموعة معادية من الجبهة الأخرى.. نبلغ القيادة. تم احتلال الجبل.. تم تطهيره.. أصيب اثنان.. استشهد ثالث.. أخذ العدو يقصفنا بالهاون.. مواقعنا الأخرى تعطى تمام.. تم احتلال سلسلة الجبال حوالى منتصف الليل.. دون طعام ونوم ليلتين تقريبا.. نحس مقاومة مجز بالرشاشات.. لابد من احتلال سلسلة جبال تحيط بمجز من الناحية الأخرى.. يستدعى ذلك المرور بمجز واحتلالها.. أقمنا المتاريس. اطمأننت لوجود الخوذة الفولاذية الخضراء الداكنة فوق رأسى.. اتكأت بماسورة بندقيتى على فتحة بين الأحجار.. تسلل الضوء دون أن ندرى.. وجدت أسنانا تصطك لى وعينين تبرقان فى وجهى.. اعترتنى قشعريرة لحظة.. كدت أصرخ.. احتبس صوتى.. أدركت.. ولست أدرى كيف.. أننى من شدة الإرهاق غفوت قليلا.. أو لابد أن يكون هذا قد حدث.. صرخت دون وعى منى.. جاءنى بعض الزملاء.. لدهشتنا وجدنا أنفسنا وسط جثث للملكيين.. تمالكنا أنفسنا.. دارينا رءوسهم ذات الشعر المسترسل.. واللحى الطويلة القذرة.. استعجلنا دوران النهار.. لم يكد يتقدم قليلا.. حتى سارعنا بحفر مقبرة فى باطن الجبل.. وارينا الجثث.. وكنا كمن يفيق من كابوس ثقيل.. زملاؤنا يبلغون عن حوادث مماثلة.. أخذنا نطهر الأغوار.. ونجد موتى

وجرحى.. ندفن الموتى.. الجرحى يرسلون للسرية الطبية.. الحالات الخطرة ترسل لصنعاء.. عثرنا على ذخيرة.. ورشاشات تشبه المدفعية الخفيفة المضادة للطائرات.. صناعة أمريكية.. استمر تفتيش الأغوار.. طوال النهار.. وجدنا كميات هائلة من الدقيق الأمريكى الفاخر.. الجبال المواجهة لنا عبر القرية.. أخذت فى قصف مواقعنا.. الناس تغادر القرية بأغنامها.. وحاجاتها.. أحيانا يتركون أغنامهم ويجرون.. أحضرنا بعضها.. تولت الدبابات إخماد مقاومة القرية.. المدفعية نصبت فى ممرات الجبال.. نرد على الجبال المواجهة لنا.. علمنا أن الأطفال والنساء والمسنين هم الذين يغادرون القرية.. المقاتلون متمركزون فى المنازل.. ويطلقون النار.. شىء غريب.. دانة الدبابة لاتهدم المنزل.. تفتح فجوة فقط.. بعد انقشاع الدخان والغبار.. نفاجأ ببنادق تطل من نفس الفجوة.. وتطلق النار.. تقرر عبور القرية ليلا.. كل فصيلة تترك مجموعة لتأمين ظهرها.. والباقى يتقدم.. أوامر القيادة.. أن تتقدم المجموعتان الأولى والثانية وتبقى الثالثة، طلب قائدنا أن تتقدم الثالثة وتبقى الأولى.. وافقت القيادة.. تولى المهندسون تدمير بعض المنازل بعبوات ناسفة.. كفت الطلقات نهائيا.. رحلوا.. السرية المتمركزة أسفل الجبل تقوم بتطهير القرية.. تسكنها أكبر قبيلة فى اليمن.. قبيلة مجز.. عبرنا القرية فى العاشرة مساء.. وسط رصاص الجبال المنهال.. نعبر على دفعات.. لم تطهر السرية القرية إلا بعد أن عبرناها.. حتى إذا حدث خطر غير متوقع.. أمكن محاصرة القرية.. الاستطلاع بالنظارات المكبرة يحدد الدور التى تطلق النار.. المرشدون اليمنيون يقودون الجنود إلى المنازل.. لتفتيشها

وتطهيرها.. منازل مبنية بطين رملي كالأسمنت.. طابق واحد.. وطابقان.. نوافذ مستديرة ومستطيلة.. عرضها حوالي نصف متر وطولها أقل من ذلك بعض الشيء.. نوافذ دار شيخ القبيلة بزجاج ملون.. ضلف الشبابيك بدائية مصنوعة من فروع الأشجار.. أخذنا مواقع دفاعية في باطن الجبل.. حتى الواحدة ونصف بعد منتصف الليل.. اطمأننا على تأمين القرية.. تمركزت قوة في المنازل المواجهة للجبل.. نعد أماكن للجرينوف.. احتلت المدفعية عيار خمسة وعشرين رطلا.. مواقع قريبة من الجبل.. نيران كثيفة على الشامخ الأبي.. صعدنا تحت حماية النيران.. التوقيت سليم.. مع قصف المدفعية المتصاعد.. فوجيء العدو بنا وفوجئنا به.. نقذف القنابل اليدوية معا.. نيران كثيفة.. نقتحم بثقة.. العدو يهرب من الخلف.. أسرنا عشرين رجلا.. من استجوابهم علمنا أنهم ليسوا يمنيين.. رطانة أردنية وسعودية.. يتولون تشغيل الهاونات.. لحظة الأسر.. صراخ.. وصوات.. جردناهم من أسلحتهم.. وذخيرتهم.. عينا عليهم حراسة في قلب متراس.. يشبه حجرة صخرية..مسقف بأعشاب وفروع السنط.. نسألهم.. لم تحاربوننا.. نحن إخوانكم.. يلزمون الصمت.. سألهم الضابط عن الأماكن التى أتوا منها، والقبائل التى يساعدونها.. وطمأنهم.. تقدمت مجموعة من ثمانية أشخاص.. لتحتل موقعا متقدما.. كاستطلاع في سلسلة الجبال المؤدية إلى نجران.. وهي سلسلة طويلة جدا.. ثمة شائعات.. أن البدر متمركز في منتصفها.. التقدم في هذه السلسلة بأعداد قليلة شبه مستحيل.. لتعذر وصول الإمدادات.. في الصباح أرسلنا الأسرى للقيادة.. عثرنا على مخازن أخرى.. مليئة بالدقيق الأمريكي الفاخر..

والذخيرة.. لاتفرقة بين الرتب فى العمل.. الرقيب أول يحمل معنا ذخيرة.. فى المواقع.. خفت المدفعية من خلفنا.. صعد بعضها معنا.. هاون ومدفعية مضادة للدبابات.. هدأت البلدة، لونها رمادى فاتح.. حظائر تحت المنازل.. مساحات قليلة مزروعة بالشعير.. تحيط بالقرية.. تكعيبات العنب فى أغلب الدور.. عنب بز طويل فى حجم الإصبع.. أخضر وأحمر غامق كالعقيق.. العنب بادىء فى النضج.. ثمة أحواض مزروعة أمام المنازل.. وأمام الأبواب.. وعلى حواف الحقول.. أشجار المشمش.. تشبه أشجار الخوخ.. متوسطة الطول.. غير ممتلئة الجذوع.. المشمش ناضج وجميل.. أكلنا منه كثيرا.. الأغنام تمرح فى الطرقات.. سفوح الجبال ملأى بالحشائش.. منظرها لطيف.. أبلغت القيادة بعدم استيلاء الفصائل على الأغنام.. نظمت عملية طهيها جماعيا.. لتوزيعها علينا.. لم ننسف أكثر من خمسة بيوت.. أربع آبار وسط الدور.. البئر بعمق عشرة أمتار تقريبا.. مبطنة بالدبش.. كيف أمكنهم هذا.. جردل كاوتشوكى.. يتدلى فى البئر بحبل.. ملفوف على بكرة محملة على عمودين، فى الأصل شجرتان.. ثمة ساقية.. مكونة من عدة مقاطف على بكرة كبيرة.. يديرها حمار.. حول بئر طافحة فى جانب من البلدة.. مكثنا فى الموقع أكثر من عشرين يوما.. حل محلنا يمنيون جمهوريون.. هاجمهم العدو.. طردهم.. تعود ثانية..

***

أُحتل مكاننا بالكتيبة المشاة.. نشارك فى تسليم المواقع.. وانزال المعدات على أمل.. ولننم أسفل الجبل حتى الصباح.. نتحرك.. جبل ليس فيه أى أثر للحياة.. أملس.. شاهق.. لاخضرة.. خلفه قرية مهجورة.. نرتقى الجبل.. نفوسنا قرفانة.. ليس لأحد رغبة أن يكلم آخر.. نعتمد على طعام الجيش.. ننزل الوادى.. مزارع عنب.. وسفرجل.. معنى هجر الناس للقرية.. أنها منطقة خطرة.. أنظل نرحل من خطر إلى خطر.. نظل فى انتظار مشاتنا دوما.. متى تأتى كتائبهم النظامية التى تتدرب فى مصر، نسترد جبال مجز.. وننتظر المشاة.. أية مجهودات ضاعت تحت بريق الفضة والرصاص.. توفيرا للوقت.. المكلف بإحضار الفطور.. يحضر الغداء أيضا.. لاعشاء على الاطلاق.. طعام مصرى.. أرز.. ملوخية.. لحم.. نزول الجبل وصعوده مرهق جدا.. وبعض الإرهاق راحة.. أخف من العمليات بالنسبة لنا. على الأقل، نقوم بشئوننا المعيشية.. نغسل ملابسنا فى برك الوادى.. أو فوق الجبل.. فى مياه متجمعة من الأمطار.. ماء آسن يعلوه ريم أخضر.. يسبح فيه الدود.. وكثيرا مانشربه.. نملأ جراكن المياه.. نستحم خلف احدى الصخور.. لو كان الجو دافئا.. خفف اليمنيون العبء عنا.. تسلموا بعض المواقع.. لنصب الخيام فى مطار صعدا.. من مدة لم نسعد بالخيام.. نظافة.. واستحمام.. وحلاقة.. وملابس نظيفة.. نحس بأنفسنا.. ونكتب رسائل.. فوق الجبل يكتب المرء بالعشرين رسالة.. طوال فترة الخدمة.. وأحسن وقت للتدخين ليلا.. ممنوع ولكن.. نضع السيجارة بين أيدينا للتدفئة.. ونشعل السيجارة

من أختها.. ألذ السهرات فوق الجبل.. نشد أسلاك التليفون المستهلكة.. فوق جدران المتراس.. ونضع فوقها البطاطين.. نثبت أطرافها بثقالات من الصخر.. نشترى فوانيس من صعدا.. تشبه فوانيس الكشافة.. نملأها (بالجاز).. ونشعلها داخل المتاريس.. نلعب الورق.. بوكر.. سيف.. كومى.. للتسلية.. على سجائر.. مع أنها موضوعة في الاركان.. ملكيتها مشاع.. نلاعب المتراس المجاور.. نكسبه.. يكسبنا.. أغلبنا ساهر.. تعتبر الخدمة مائة في المائة.. الراديو شغال طوال الليل.. مع الشعب.. البرنامج العام.. صوت العرب.. تنتهى الإذاعات.. والراديو يصفر على الفاضى.. المتاريس تتبارى فى تسبيك الطعام الميرى.. وإعادة طهوه.. ونصرف كثيرا من نقودنا فى شراء أطعمة أخرى.. وننتظر المشاة.. وننتظر فى كل يوم عملية جديدة.. باعوا المواقع.. الملكيون ينوون شن هجوم مضاد.. نسترد الجبال. صائمون.. نفطر على سجائر وماء.. نحتفظ بزبيب فى جيوبنا.. بعضنا يفطر به.. تكليف مجموعتنا بحراسة أكبر خور.. يحتمل مرور العدو منه.. الخور مجرى مائى مدرج.. يصلح للارتقاء.. إشارة تصل أن الطائرات ستقوم بالقصف.. لتؤمن المنطقة خلفنا.. استمر القصف عدة ساعات.. يجاورنا واد عميق.. ليس فيه أى أثر للحياة.. لم نذهب إليه مطلقا.. فى الليل يلمع ضوء.. يشبه ضوء نواسة.. نطلق الرصاص بغزارة.. كتيبة مشاة تصل.. تتسلم منا.. متى تصل كتيبة مظلات تغيرنا.. الراديو يذيع حفلة.. فايزة أحمد تغنى (رشوا الورد).. الحفل تكريم لكتيبة صاعقة.. الكتيبة التى ذهبنا نفك حصارها فى صرواح.. نسمع إجابات جنودها على

المذيع بين الفقرات.. كل شىء تمام.. الطعام والترفيه.. نضحك.. آه الطعام يصل باردا جدا.. ومتأخرا جدا..

* * *

أهذه أنت حقا الحديدة.. عمارات تشيد.. وأنت أيها الغجرى.. ألن تستر وسطك أبدا.. أحياء الأحباش والسودانيين.. يدب النشاط فى أكشاكهم التى يسكنونها.. عمال يفرغون البضائع والذخيرة بريالين فى اليوم.. لم يكن لهم عمل إلا تخزين القات.. يشبه ورق الصفصاف الأخضر ونفس ملمس سطحه الناعم.. الزيود فى الجبال يتعالون على أهل الساحل من السعوديين والأحباش.. الساحليون لايرتدون الألوان الزاهية كالزيود.. لايمكن لإبن عامل أن يتزوج ابنة فلاح.. الفلاح الذى يأكل خبز القمح.. الآخرون يأكلون الشعير والذرة الصفراء.. وماهو مصنوع من الذرة العويجة.. فى أفران اسطوانية.. النجار والحداد والحلاق.. طوائف مكروهة. عمال التفريغ.. لم يعد البيض بالنسبة لهم حق الإمام.. مدارس تشيد.. وأطباء الجيش المصرى يعالجون المترددين.. اليمنيون مرضى بضعف التغذية.. والأمراض المعوية.. والدرن. اليمنى يثق بالطبيب والشيخ.. لم يترددوا على أطباء لقرون خلت.. فى الحديدة لم نحتل.. مامعنى هذا.. لم نذهب إلى المطار.. ضمن أول عشرين جندى مظلات.. وصلوا اليمن.. بعد ثورة سبتمبر بيومين.. سنة ١٩٦٢م. مطار الحديدة

أرض فضاء.. في بطن جبل مرتفع.. لاتوجد ممرات.. لا مباني.. سوى حجرة مبنية بالطين.. أرض المطار مغطاة بالشوك والنباتات الشيطانية.. لم نحتل.. آه أين أنت الآن أيتها النباتات الطفيلية.. هل آذنت الأيام بالرحيل.. هل آن لنا أخيرا أن نحتفل بالعيد الصغير.. ليلته نفطر واطلاق الرصاص يدوي.. كل جندي يخطف لقمة.. ويسرع لسلاحه.. الملكيون يزرعون الألغام في الطرق التي مهدتها العربات.. طرق ترابية.. وطرق مسبخة.. تربتها حمراء.. في جزء من الطريق زلط هش وأسمنتي.. تفتته الدبابات.. تنتصف ليلة العيد.. يخف القصف قليلا.. يجمعنا الرقيب أول.. كل سنة وأنتم طيبون.. طبعا نحن لسنا هنا لنعَيِّد.. جئنا لنحمي ثورة.. لازم نكون عند حسن ظن المسئولين.. لولا ثقتهم بنا.. ماكلفونا بمهمة ليلة العيد.. يشرح ماينتظرنا من عمل.. أهداف المعركة.. توقع أن يكون الفارون من مجز متجمعين في نشور.. المقاومة ستكون شديدة.. المدفعية تبدأ تحضيراتها الأولية.. زميل يقول ننتظر لما كتيبة المشاة تستعد.. وتشترك معنا في عملية كبيرة مثل هذه.. القائد.. عيب قوي لما فرد مظلات يقول كلمة مثل هذه.. لم أتوقع سماع مثل هذا الكلام. .أنتم وحوش مثل المشاة.. سرت همهمة.. تستنكر قول الزميل.. القائد.. لاتلوموه.. جائز له فكرة ثانية.. وعلى أي حال.. أنا متأكد إن كل فرد يقول مثل هذا الكلام قبل كل معركة لنفسه.. لكن يكون سعيدا بعد كل نصر.. وصل ترفيه من مصر.. كعك في علبة جميلة لكل فرد.. وعلبتان (بمبوني).. شيكولاته وبسكويت يوزع بعد العملية.. نستعد ونتذوق

الكعك.. حضر قائد الكتيبة.. نعرف عنه الصرامة.. قوة الشخصية.. تبسط معنا لأول مرة.. نتبادل الضحك.. يرد على أسئلتنا.. كل سنة وأنتم طيبون.. والعيد القادم إن شاء الله تكونون في مصر.. وتكون هذه البلد بخير.. أنا أعرف فيم تفكرون.. كان ممكنا الرواح من مدة.. مارضيت استغنى عنكم.. استأذن حتى لايعطلنا.. دائما في مقدمتنا.. ينتقل إلى مقدمة كل سرية تضطلع بعملية.. لسهر (صباحي).. تناوم بعضنا لحظات قصار. في الخامسة صباحا.. عربات مدرعة.. عربات نقل.. جر المدافع.. ركبت عربة مدرعة مع مجموعتي.. نتجنب الطرق المطروقة.'. ملغمة.. التقدم في ساحة متسعة.. تحيط بها حدوة من الجبال.. نشور في جانب من رأس الحدوة.. الجبال تتحول لقاذفات للحمم والقذائف.. قذائف مدفعيتنا المركزة تسهل لنا العملية.. العربات تنتشر بحذاء الجبال.. هاونات الجبال والرشاشات تلاحقنا.. يقذفوننا من الأغوار.. في المساء قل تأثير مدفعيتهم.. نتقدم على ضوء الطلقات الكاشفة.. لم يكونوا على الجبال المحاذية لنا.. يحتمون بالجبال الخلفية.. امتطينا الجبال.. أخذنا نريهم أن عندنا هاونات أيضا.. انسحبوا من أغلب المواقع.. لم يستمر عنيدا إلا جبل خنفرع.. ولكنه بعناده لم يمنع نشور من السقوط.. جاء يمنيون جمهوريون وأخذوا مكاننا بالجبال.. لم تقاوم نشور.. رغم عصبيتها الشديدة للملكية.. في الليل نسيطر على الجبال المحيطة بها.. نهارا في متناول أيدينا.. أهلها يرحلون.. عزالهم على الحمير.. أحمال صوفية.. أبراش تشبه الأكياب.. لامراتب ولا مخدات.. شيخ القبيلة هو الذى يملك

مخدات من ريش النعام.. القرية رمادية غامقة من بعيد.. تحيط بها أشجار السنط والصفصاف. فى جوانب البيوت تكعيبات العنب وأشجار المشمش.. حقول الشعير خارج البلدة صفراء.. أوان التسبيل (الحصاد).. بقى بنشور بعض أهلها.. جمهوريون.. لانطلق الرصاص على الراحلين.. ذبحنا بعض الخراف.. وزعنا على من بقى فى نشور والقرى الجمهورية التى أمناها.. وأرسلنا للمواقع.. تأمين نشور.. بعض إذلال خنفرع، أعلى جبل قهرناه فى اليمن.. الخدمة تكون فوق السحاب. فى الليل.. لايرى الإنسان إصبعه.. الفئران والثعالب تمرح فى الجبل.. يقفز الفأر فجأة.. تسقط بعض الأحجار.. فكأن جيشا قد صعد.. ترتبك الأعصاب.. يفتح المرء النار على الفور.. العقارب.. تهزأ بليل النيام.. فى الخدمة تحف الثعالب بالأقدام.. نصب النار بغزارة.. الخدمات الطبية جاهزة بالأمصال الواقية.. لانشعل أى ضوء حتى لايحدد العدو مواقعنا.. أقوى قرية استولينا عليها.. قريبة من السعودية.. الموقع الوحيد الذى لم يجرؤ على مخالفة تعليمات الإنارة.. أدخن السيجارة بين كفى.. الهواء فوق الجبل مشكل.. يهب بشدة وعنف.. انبطح على وجهى.. أكلبش فى الصخر.. أحيانا يستمر هبوب الهواء طول الليل.. فى حلكة الظلام لازيارات للمواقع الأخرى.. أقل همسة نطلق نارا فورا.. لاوقت لتقف من أنت.. الضابط النوبتجى يعطى اشارات ضوئية.. نحتل مكان العدو.. مكث الملكيون فترة كبيرة.. على خنفرع.. ذهبوا وتركوا قملهم يناوشنا.. نخلع ملابسنا وننشرها فى شمس النهار الموقدة..

الحديدة لاأسوار لها.. تجارية لجوارها البحر.. هدايا للأهل والأصدقاء.. ترسل لى رسمك.. الحب.. يزدهر حيث المنبت.. وحيث الأغصان تورق.. لم نحتل.. نحل ضيوفا فى معسكر.. خلعنا الملابس العسكرية.. نشترى لباس البحر.. نلعب الكرة.. نعمر الساحل باللعب والضحك.. الخبراء الروس أقاموا (بلاچا) محترما.. ليل الحديدة لطيف.. سينما.. اليمنيون يخبئون عيونهم.. إذا وضع ممثل يده على ممثلة.. فى أفلامنا العربية.. ماهذا.. مقهى راق على شاطيء البحر.. الباخرة سوريا.. فى الميناء.. أنسى نفسى.. الفرحة تجعل الرؤية وردية.. إحساسنا العميق بما فعلنا يتغلغل ثنايا نفوسنا.. دون أن يفصح عن نفسه فى كلمة.. أو لفتة.. ولكن أصداءه تشع منا.. ذهب عن نفسى بعض ماعلق بها من كدر.. أعلم أن قهر مجلس إدارة أعتى من ترويض الجبال الرواسى.. زملاء فى مهمة بالطائرة.. يحكون عن زينات فى الاسكندرية لاستقبالنا..

صدر للمؤلف
****

قصص قصيرة

* سلامات. أدب الجماهير. نوفمبر ١٩٦٩
* كراكيب. ٢ طبعات. أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٧٠ وسبتمبر ١٩٨٣ وفبراير ١٩٨٧
* سجناء لكل العصور. طبعتان. أدب الجماهير. يونيو١٩٧٧ وأكتوبر١٩٨٧
* الزمن المستباح. ٣ طبعات. أدب الجماهير. مارس ١٩٧٨ وأغسطس ١٩٨٢ ومارس ١٩٨٦
* النيل ينبع من المقطم. مواهب. فبراير ١٩٨٥
* كحكة للصبي. دار النديم، يونيو ١٩٩٠

الرواية

* شارع الخلا. ٣ طبعات. أدب الجماهير. أكتوبر ١٩٦٨ وأكتوبر ١٩٧٩ وأكتوبر ١٩٩٥
* نافذة على بحر طناح. طبعتان. أدب الجماهير. فبراير ١٩٧٦. الثقافة الجديدة. ١٩٧٩
* المحاصرون. أدب الجماهير. أغسطس ١٩٧٢
* رجال وجبال ورصاص. طبعتان. أدب الجماهير. يونيو١٩٧٢ و١٩٩٧
* الأسرى يقيمون المتاريس. ٥ طبعات. أدب الجماهير. فبراير ١٩٧٦ ومايو ١٩٧٩ ويونيو ١٩٨٥ وسبتمبر ١٩٨٧ وديسمبر ١٩٩٥
* العمرة. طبعتان. أدب الجماهير. اكتوبر ١٩٧٧ وديسمبر١٩٩٦
* القرفصاء. طبعتان. أدب الجماهير. مارس ١٩٧٨ وفبراير ١٩٩٢
* متهمون تحت الطلب. ٢ طبعات. أدب الجماهير. مايو ١٩٨١ ويناير ١٩٨٥. وزارة الثقافة بسوريا ١٩٨٢
* عنقودة وسمرة - إقليم شرق الدلتا الثقافي - ديسمبر ١٩٩٦

المسرح

- الناس اللى ماعاهاش. مسرحيتان من فصل واحد. طبعتان. أدب الجماهير. ابريل ١٩٧٢ ومايو ١٩٨٤
- حاملات البلاليص. مسرحية فى ٣ فصول. أدب الجماهير يونيو ١٩٨٦
- عفوا رئيس الديوان. ٥ مسرحيات من فصل واحد. أدب الجماهير. مارس ١٩٨٧
- أوراق أدبية. أدب الجماهير. ديسمبر ١٩٨٠

أدب الطلائع

- حلوان شامة. قصص طويلة. ٢ طبعات. أدب الجماهير. فبراير ١٩٨٢ وأكتوبر ١٩٩١. ورؤيا بالاسكندرية مع دار آزال ببيروت تحت اسم (حكاية الأمير سيف والأميرة شامة). فبراير ١٩٩٠
- أمن الذئاب. قصة طويلة. رؤيا. نوفمبر ١٩٨٨
- تعظيم سلام. قصص. طبعتان. أدب الجماهير. يونيو ١٩٨٩. واقليم شرق الدلتا الثقافى. مارس ١٩٩٥
- الأسد ينظر فى المرآة. قصص. الحقيقة. فبراير ١٩٩٠
- شجرة الدر تتلقى الأمانة. رواية. طبعتان. أدب الجماهير. مايو ١٩٩٠ وهيئة الكتاب ١٩٩٥
- بنات رشيد. مسرحية. هيئة الكتاب. نوفمبر ١٩٩٠
- تمرد رئيسة البنائين. قصص. طبعتان. أدب الجماهير. أغسطس ١٩٩١. ويافا للدراسات والأبحاث. ١٩٩٢
- براءة مارية القبطية. قصة طويلة. أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٩٢
- مجلس الملكات. قصص. قطر الندى. أغسطس ١٩٩٦.

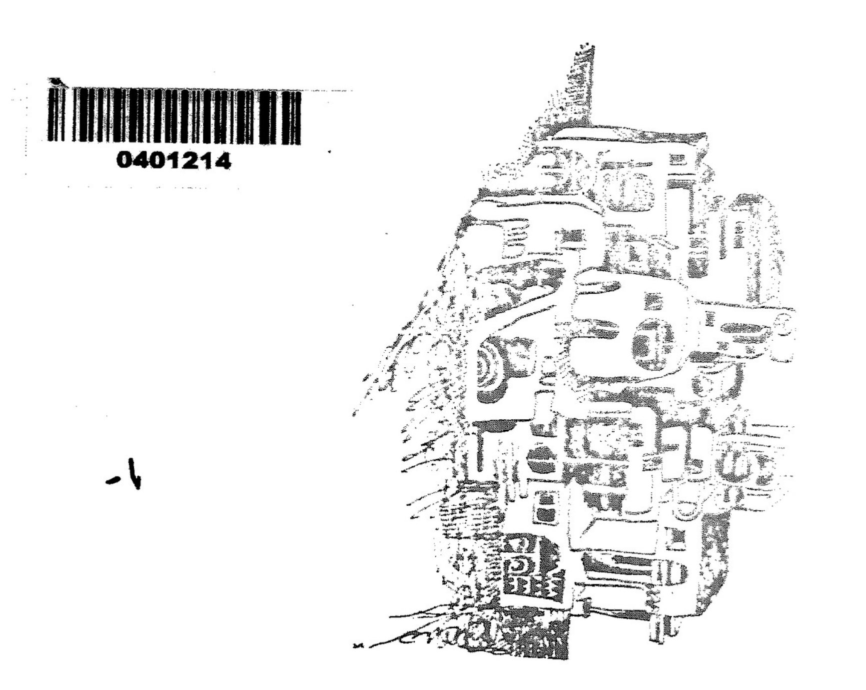
صدر حديثا :

استئناس الفراغ	شعر	كريم عبد السلام
ليلة ٣٠ فبراير	قصائد منسوخة شعر	أشرف يوسف
سكتم بكتم	شعر	هشام علوان
المشى بمحاذاة رجل يشبهنى	شعر	هشام الصباحى
العمرة الطبعة الثانية	رواية	فؤاد حجازى
غائب مؤرق بالحضور	شعر	محمد خيرى الإمام
رجلى ف وضع الشهوة	شعر	أحمد عجاج
رجال وجبال ورصاص الطبعة الثانية	رواية	فؤاد حجازى
عندما تبكى الشموع	شعر	أحمد الشربينى الصعيدى

تحت الطبع :

المحاصرون الطبعة الثانية	رواية	فؤاد حجازى
أوراق أدبية الطبعة الثانية		فؤاد حجازى
أوراق نقدية		فؤاد حجازى
لم ... أيها القمر	شعر	طارق الطبيلى
لاترحلى	شعر	أحمد الشربينى الصعيدى

رقم الإيداع : ٣٩٤٩|٩٧
الترقيم الدولى :I.S.B.N
977-5636-40 -X


0401214